الجزء الأول

ابْنُ رُشْد

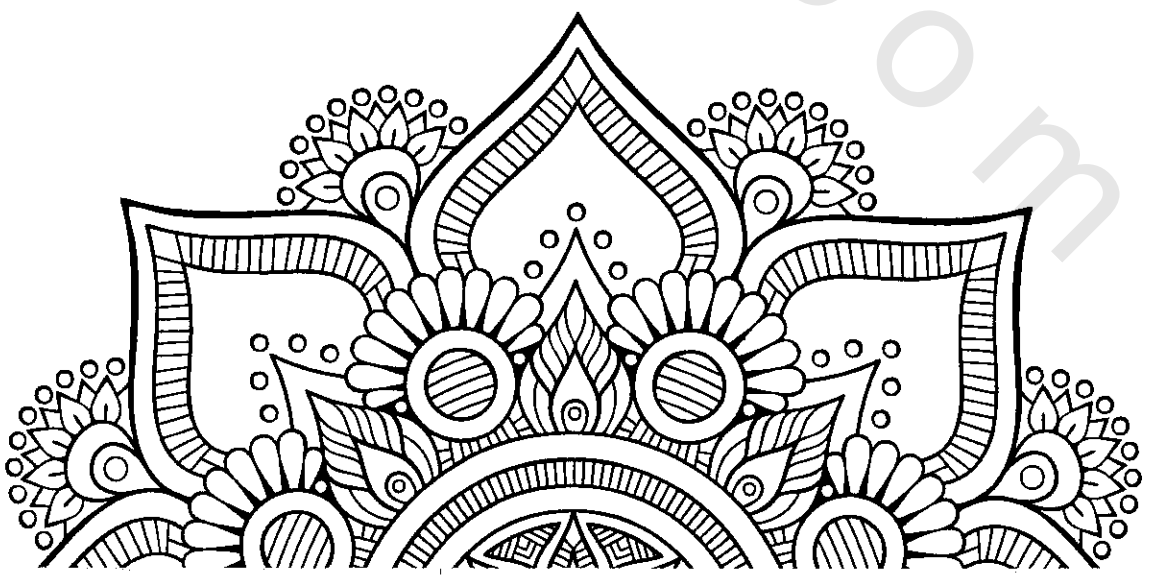

obeikan.com

الفصل الأول

حَيَاة ابْن رُشْد ومُؤَلَفَاتُه

1 - نظرةٌ فيما اعتور الفلسفة من نصيبٍ مختلفٍ في إسبانيا العربية قبل ابن رشدٍ

تَشْغَلُ حياةُ ابن رشد جميعَ القرن الثاني عشر تقريبًا، وترتبط في جميع حوادث هذا الدور الحاسم في تاريخ التمدن الإسلاميّ، وأبْصَرَ القرنُ الثاني عشر، نهائيًا، حبوطَ ما حاوله العباسيون في الشرق والأمويون في إسبانيا من توسيع لحقل العقل والعلم في الإسلام، فلما مات ابن رشد في سنة 1198 فَقَدَت الفلسفةُ العربية فيه آخرَ ممثلٍ لها، وضُمِن انتصارُ القرآن على الحرية الفكرية لستة قرون على الأقلّ. وقد أَسْهَمَ ابنُ رشدٍ فيما لِمِثْلِ هذا الوضع من نَفْعٍ وضَرٍّ بما لَقِيَ من نَكَبَاتٍ في حياته وما تمتع به من شهرةٍ بعد مماته، وذلك بما أنه ظَهَرَ بعد دورٍ من الثَّقَافَة العقلية العظيمة، وذلك في زمنٍ كانت هذه الثَّقَافَة تتداعَى، فإن مصائب مَشيبِه إذا كانت شاهدةً على ما ابْتُلِيَتْ به القضيةُ التي كان يُدَافِعُ عنها من زوالِ حُظْوةٍ فإنه عُوِّضَ من هذا تعويضًا ملائمًا باقتطافه وحدَه، تقريبًا، مجدَ أعمالٍ لم يَفْعَلْ غيرَ عرضها في مجموعها، فكأنَّ ابنَ رشدٍ بُوِيسُ الفلسفة العربية، أي أحدُ أولئك الذين يَظْهَرُون مؤخَّرًا فيُعَوَّضون من الإبداع الذي يُعْوِزهم بمَوْسُوعية آثارهم القائمة على الشرح والنِّقَاش، أي أحدُ أولئك الذين يظهرون في وقتٍ متأخرٍ جدًّا فلا يبتكرون، وإنما يَكُونُون آخرَ ما للحضارة المتداعية من دعائمَ فَيَرَوْنَ اقترانَ اسمهم ببقايا الثَّقَافَة التي لَخَّصُوها، كما يَرَوْن غُدُوَّ مؤلَّفَاتِهم صيغةً مختصرة تَدْخُل بها هذه الثَّقَافة، من ناحيتها، في أَثَر الذهن البشريِّ المشترك.

ولم يَكَدْ يَمْضِي على الفلسفة العربية الأندلسية قرنان حتى أبْصَرَتْ أنها وُقِفَتْ من فَوْرِها عن تعصبٍ دينيٍّ وانقلاباتٍ سياسية وغاراتٍ أجنبية، وقد كان للخليفة الحَكَم الثاني فخرُ البدء بهذه السلسلة الرائعة من الدراسات التي لها مقام مهمٌّ في تاريخ الحضارة بما اتَّفَقَ لها من تأثيرٍ في أوربا النصرانية، ويَرْوِي المؤرخون المسلمون أن الأندلس تحولت في عهده إلى سُوقٍ

عظيمة تُجْلَب إليها مُنْتَجَاتُ الأدب من مُخْتَلِف الأقاليم حالًا[1]، وكانت الكتب التي تؤلَّفُ في فارسَ وسوريا تُعْرف في الأندلس، غالبًا، قَبْلَ أن تُعْرَفَ في المَشْرِق، ومن ذلك أن أرسل الحَكَمُ ألفَ دينارٍ من الذهب الخالص إلى أبي الفرج الأصفهانيّ كَيْمَا يَحُوزُ النسخةَ الأولى من أغانيه المشهورة، ومن الواقع أن قُرِئَ هذا الأَثَرُ النفيس في الأندلس قَبْلَ أن يُقْرَأَ في العراق، وقد كان للحَكَم في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية وكلاءُ عَهِدَ إليهم في الحُصُول له على مؤلَّفَاتٍ من علوم الأوَّلين والآخرين بأيِّ ثمنٍ كان، وتَحَوَّلَ قصرُه إلى مَصْنَعٍ لا يُلْقَى فيه غيرُ الناسخين والمُجَلِّدين والمُزَوِّقين، وكانت قائمة مكتبته وحدَها مؤلَّفَةً من أربعة وأربعين مجلَّدًا[2]، وذلك من غير أن تشتمل على غير عُنوانِ كلِّ كتاب، ويَرْوِي بعض المؤلِّفين أن عدد المجلَّدات بَلَغَ أربعمائة ألف، وأن نَقْلَ هذه المجلدات من مكانٍ إلى آخرَ استلزم ستة أشهر على الأقلّ، وكان الحَكَمُ مُتَبَحِّرًا في التراجم وعلم الأنساب، ولم يُوجَدْ كتابٌ لم يقرأه، ثم إنه كان يكتب على أوراق متنقلة اسمَ المؤلِّف وكُنيته وأُسْرَته وقبيلته وأهله وسنةَ ولادته وموته وما عُزي إليه من نوادر، وكان يقضي وقته في محادثة رجال الأدب الذي يَرِدُون بَلَاطَه من جميع أنحاء العالَم الإسلاميّ.

وكان عربُ الأندلس، حتى قبل الحَكَم، يَشْعُرون بحافزٍ فيهم إلى الدِّرَاسَات الحرة، وذلك بفعل هذا الإقليم الجميل أو بفعل صِلاتهم المستمرة باليهود والنصارى، وكان من جهود الحَكَم، وقد ساعدته عليها عواملُ ملائمةٌ إلى الغاية، أن نَمَتْ حركةٌ أدبيةٌ تُعَدُّ من أسطع ما في القرون الوسطى، وكان من المَيْلِ إلى العِلْم والموضوعات الجميلة في القرن العاشر أن قام في هذه الزاوية الممتازة من العالم تسامحٌ لا تكاد الأزمنة الحديثة تَعْرِض مثيلًا له علينا، وذلك أن النصارى واليهود والمسلمين كانوا يتكلمون بلغة واحدة، ويُنْشِدُون عَيْنَ الأَشعار، ويشتركون في ذات المباحث الأدبية والعلمية، وقد زالت جميعُ الحواجز التي تَفْصِل بين الناس، فكان الجميعُ متفقين على الجِدِّ في حقل الحضارة المشتركة، وتَغْدُو مساجدُ قرطبة، التي كان الطُّلَّاب فيها يُعَدُّون بالألوف، مراكزَ فَعَّالةً للدِّرَاسات الفلسفية والعلمية.

---

(1) بسكوال الغاينغوسي، تاريخ الدول الإسلامية في الأندلس، من متن المقري، (لندن 1840)، الجزء 1، الذيل 40 وما بعده، الجزء 2، الصفحة 168 وما بعدها، الغزيري: المكتبة العربية الإسبانية، الجزء2، الصفحة -37 38 والصفحة 201، 202 مدلدورف، Comment. de institutls, litterarlis in Hispania quoe Arabes auctores habuerunt (غوتنجن 1810)، ص11، ص 59، كاترمير، مذكرة حول ميل الشرقيين إلى الكتب، ص 41، ابن أبي أصيبعة، في حياة ابن باجة، (المكتبة الإمبراطورية، تكملة، مادة 676، ص 195).

(2) انظر إلى ابن الأبار، في دوزي: لمحات حول بعض المخطوطات العربية، ص 103، 1، 16، 17، المقري (طبعة دوزي، رايت إلخ) جزء1، ص256.

بَيْدَ أن التعصب الدينيَّ، الذي هو عاملٌ مشؤومٌ أزال بُذُورَ التقدم العقليّ لدى المسلمين، كان يُعِدُّ تقويض أثرِ الحَكَم، وذلك أن علماء الكلام في المشرق كانوا قد أثاروا رِيبًا جِدِّيَّةً حَوْلَ نجاة الخليفة المأمون لإقلاقه عاملَ التقوى في الإسلام بإدخاله فلسفة اليونان[1]، فم يَبْدُ مُتَزَمِّتُو الأندلس أقلَّ قَسْوَةً، ولما اغتصب الحاجبُ المنصورُ السلطةَ من الضعيف هشام، الذي هو من بَنِي الحَكَم، أدرك أنه يُغْفَرُ له كلُّ شيء إذا ما أَرْوَى نفورَ الأئمةِ والْجُمهورِ الغريزيَّ من الدِّرَاسات العقلية، فأَمَرَ، إِذَنْ، أن تُسْتَقْصَى كُتُبُ الفلسفة والفلك، وغيرِهما من العلوم التي زاولها القدماء، في المكتبة التي عُنِيَ بجمعها الحَكَمُ عن حُبٍّ بالغٍ للاطلاع، ويُحْرَق جميع هذه الكتب في ميادين قرطبة العامة أو تُقْذَف في آبار القصر وصهاريجه، ولم يُحْفَظْ من هذا غيرُ كتب التوحيد والنحو والطبِّ، قال المؤرخُ سعيد الطليطليُّ[2]: «عزا مؤرخو العصر عملَ المنصور هذا إلى رغبته في الْحظْوَة لدى العوامِّ وفي إثارة أقلِّ ما يكون من معارضةٍ حين إلقائه ضَرْبًا من الغِشَاوة على ذكرى الخليفة الحَكَم الذي كان يحاول اغتصابَ عرشه»، ولسوف نَرَى ما كَان للفلاسفة من حُظْوةٍ شعبية قليلةٍ في الأندلس، ولم يُحِبَّ الْجمهورُ فريقَ الحكماء قَطُّ، وكان احتمالُه لشَرَفَ العقل أصعبَ من احتماله لشرف النسب والنَّشَب، ولم تتمتع الفلسفة بعد أمرِ المنصور ذاك بغير فَتَرَاتٍ من الحرية قصيرةٍ، وبَدَت الفلسفةُ هدفًا لاضطهادٍ مكشوفٍ غيرَ مرة، ورأى من يتعاطَوْنها أنفسَهم موضعَ تصريح بأنهم زنادقة من قِبَل أئمة الشريعة، واضْطُرَّ العلماء غيرَ مرةٍ إلى كَتْم عِلْمهم حتى حِيَالَ أصدقائهم الخالصي المودَّة خشيةَ الوِشَايَةِ بهم والْحُكْمِ عليهم مِثْلَ مَلَاحِدَة.

وما كانت إسبانيا الإسلامية مَسْرَحًا له من الانقلابات في القرن الحادي عشر ألقى حضارةَ الأُمويين في خطرٍ بالغ، فقد نُهِب مركزُ الدِّرَاسات الرائعة: قرطبة، ودُمِّرَ قصرُ الخلفاء، وأُتْلِفَت المجموعات، وبِيعَت بقايا مكتبة الحَكَم بأبخس الأثمان، وبُدِّدَت في البلد، ويَرْوِي سعيد أنه شاهد مُجَلَّداتٍ كثيرةً منها في طليطلة، ويعترف بأن ما تشتمل عليه كان يُوجِب إحراقَها لو سُيِّرَت المباحث التي تَمَّتْ في عهد المنصور بانتباهٍ كما تَمَّتْ بُهيَام.

وكان للفلسفة من الجُذُور المتأصلة في هذا البلد الجميل ما كانت جميع الجهود، التي

(1) عدت المصائب التي حلت به عقابًا على تعلقه بالفلسفة (تاريخ أبي الفداء، جزء2، 148، 150).
(2) غاينغوس: جزء1، الذيل، الصفحة 40وما بعدها.

بُذلَتْ للقضاء عليها، لتؤدِّيَ معه إلى غير إنعاشها، ويُؤكِّدُ لنا سعيدٌ[1] أن ما تَمَّ في زمنه (1068) من دِراسات لعلوم الأوائل اتَّفَقَ له من الازدهار ما لم يَبْلُغْه قَبْلَ ذلك قَطُّ، وإن كان الملوك لا يزالون يَمْقُتُونها، وإن كانت ضرورة الذهاب إلى الجهاد في كلِّ عامٍ بالغةَ الضَّرَرَ بتأمُّلَات الفلاسفة، حتى إن بعض الأمراء كانوا يَظْهَرُون ملائمين لها، أو متسامحينَ نحوها على الأقلّ، وقد أثبتت التجربة عدمَ احتياج الفلسفة إلى حماية ولا إلى رعاية، وأنها لا تَسْتأذن أحدًا ولا تَتَلَقَّى أمرًا من أحد، فهي أكثرُ محاصيل الشعور البشريِّ تِلْقَائِيَّةً، وذلك أن عصرَ حُكْمِ الحَكَم الذهبيَّ لم يُخْلِّفْ للتاريخ أيَّ اسمٍ مشهور، وأن أسماء ابن باجَّة وابن طفيل وابن زُهْر وابنِ رشد، الذين أزعجهم التعصب، دخلَت في مَجْرَى الحياة الأوربية، أي ضِمْنَ حياةِ الورَى الحقيقية.

2 - سيرة ابن رشد

مَرَاجعُ سيرة ابن رشد[2] هي:

(1) الكلمة الوجيزة التي خَصَّه بها ابنُ الأَبَّار في تكملته على مُعجم التراجم لابن بَشكُوال[3].

(2) مقالةٌ طويلة، ولكن مَبْتورةٌ في البدء، ضِمْنَ تكملةٍ لمُعْجَمَي ابن بَشْكوال وابن الأبار، وهي لكاتبها أبي عبد الله محمد بن أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري المرَّاكُشيّ[4].

---

(1) غاينغوس، الكتاب المذكور، ص 41 وما بعدها، وقد أعلمني مسيو دوزي أن مخطوط ليدن، رقم 159، ص 297.(2) يعرض معنى مختلفًا، غير أن مسيو شيفر (ص93) يؤيد قسمًا من ترجمة مسيو غاينغوس.

(2) تكون اسم ابن رشد اللاتيني، Averroés، بفعل اللفظ الإسباني، الذي تحولت به كلمة Ibn إلى Aben أو Aven، ولا تجد غير أسماء قليلة اعتورها من تنوع النسخ ما اعتور هذا الاسم، فقيل: Ibn Rosdin, Filus Rosadisk Ibn Rusid, Ben Raxid, Ibn Ruschod, Ben Resched, Aben Rassed, Aben Rois, Aben Rasd, Aben Rust, Avenrosd, Avenryz Adveroys, Abulguail, Aboolit, Alulidus, Benroist, Avenroyth, Averroysta إلخ، وتجد لكنية ابن رشد تنوعات أخرى، فقيل: Abłut, Aboloys (أساس قديم 6949ن 7052، أرسنال العلوم والفنون، 61)، ويرجح أن يكون هذا تحريفًا لكلمة محمد، والواقع أن هلدبر قد سمى هذا النبي الغوي Mamutius.

(3) مخطوط الجمعية الآسيوية، الصفحة 51 وما بعدها، انظر إلى الذيل 1.

(4) مخطوط المكتبة الإمبراطورية، (التكملة العربية، 682)، ص7 وما بعدها، ولا يشتمل هذا المجلد على غير تراجم الرجال الذين يحملون اسم محمد، وقد ضاعت الورقات الأولى عن سيرة ابن رشد، ومن الواجب أن أقول إن هذه المقالة الخالية من العنوان والتي نقلت من مكانها الهجائي كانت تفوتني على الأرجح لو لم يدلني عليها مسيو منك الذي قام ببحث خاص حولها، انظر إلى الذيل3.

(3) كلمةٌ وجيزة لابن أبي أُصيبعة في كتاب طبقات الأطباء[1].

(4) المقالة التي خَصَّ بها الذهبيُّ في حَوْليَّاته[2] فيلسوفَنا مع مُضْطَهِدِه يعقوب المنصور، وذلك في سنة 595 من الهجرة.

(5) مقالة ليونَ الإفْريقيِّ في كتابه مشاهير الرجال لدى العرب[3].

(6) عباراتٌ لمؤرخي إسبانيا الإسلامية، ولاسيما عبدُ الواحد المَرَّاكُشيّ[4].

(7) الأدلة المُسْتَنْبَطة من مؤلفات ابن رشد الخاصة[5].

ويَظْهَرُ أن ابن الأبار والأنصاريَّ أكثر من ترجم لابن رشدٍ استعلامًا، فقد تَلَقيَّا أخبارَهما ممن عَرَفَ فيلسوفَ قرطبة معرفةً صميمية، وكذلك عبدُ الواحد يستحقُّ كلَّ ثِقَةٍ به وإن ظهر بعد ابن رشدٍ بجيل واحدٍ، وما قَدَّم من تفصيلٍ دقيقٍ عن ابن زُهْر وابن باجَّة وابن طُفَيْل، الذي عاين مؤلفاتِه المكتوبة بيده والذي عَرَف ابنَه، يَشْهَدُ بأنه عاش في مجتمع زمانه الفلسفيِّ، وألَّفَ ابنُ أبي أُصيبعة كتابَه بعد وفاة ابن رشد بنحو أربعين سنة، وجَمَع أخباره من القاضي أبي مروان الباجِّيِّ الذي عَرَفَ الشارحَ معرفةً شخصية كما يلوح، ولم يَصْنَع الذهبيُّ غيرَ نَسْخٍ من تَقَدَّمُوه، وأما ليونُ الإفْريقيُّ فقيمةُ روايته ضعيفة، فالخِفَّة لازمةٌ ما ألَّفَ غالبًا وإن استشهد بمؤلِّفي العرب في كلِّ صفحة، ولاسيما صاحبُ التراجم: ابن الأبار[6]، وذلك فضلًا عن أن الترجَمة اللاتينية، التي هي كلُّ ما بَقِيَ لنا من كتابه، بلغت من الغِلْظة ما يَجِبُ أن يُعْدَل معه، غالبًا، عن العُثُور على معنًى لها.

وزِدْ على ذلك كَوْنَ الأحاديثِ التي رُوِيتْ حَوْلَ ابنِ رشدٍ في القرون الوسطى وعصرِ النهضة ذاتَ صِبْغَةٍ تاريخية أقلَّ من تلك، وهي لا تَدُلُّ على غير الرأي الذي كُوِّن عن هذا الشارح، وهي

(1) مخطوط المكتبة الإمبراطورية (تكملة، مادة 673)، الورقة 201، 5 وما بعدها. انظر إلى الذيل 3، وقد نشر مسيو بسكوال الغاينغوس ترجمة مختلفة لهذه المقالة في ذيول الجزء الأول من ترجمته لكتاب المقري.

(2) مخطوطات عربية في المكتبة الإمبراطورية (أساس قديم 753)، الصفحة 802 وما بعدها، الصفحة 87: 5 وما بعدها، انظر إلى الذيل 4.

(3) نشرت باللغة اللاتينية للمرة الأولى من قبل هوتنغر في كتابه Bibliothecarium quadripartitum، الصفحة 246 وما بعدها، (تيغوزي 1664)، وذلك عن نسخة في فلورنسا، ونشرت للمرة الثانية من قبل فابريسيوس، المكتبة الإغريقية، الجزء 13، الصفحة 259 وما بعدها، (الطبعة الأولى).

(4) النص العربي،، نشره مسيو رينارت دوزي (ليدن 1847).

(5) ليعلم القارئ منذ الآن أن الاستشهادات بمؤلفات ابن رشد تشير، عند عدم ذكر الطبعة، إلى طبعة 1560، aprud Cominum de Tridino، وذلك عدا الطبيعيات ورسالة النفس حيث اتبعت طبعة الجونت لسنة 1553.

(6) لا تجد العبارات التي عزاها ليون إلى ابن الأبار في المقالة التي خص بها هذا المؤلف ابن رشد في تكملته، ومن المحتمل أن يكون الخطأ قد تطرق إلى ليون بعنوان غير صحيح.

لا فائدةَ منها لغير تاريخ الرُّشدية، ومع ذلك فإن هذه الأحاديث هي التي تألَّفَ منها جميعُ سيرة ابن رشد حتى أواسطِ القرنِ السابعَ عشرَ، فلما نُشِرَ كُتَيِّبُ لِيُونَ في سنة 1664 نُسِخَتِ المقالةُ التي خَصَّ بها ابنَ رشدٍ نَسْخَ اعتمادٍ خال من النقد من قِبَل مُوريري وبَرْتولُكْشي وبيل وأنطونيو وبرُوكِر وسبرِنْغِل وأُمورُو ومِدِّلْدُرْف وأَمَابل جُرْدان، ومع أن مقالة ابن أبي أُصَيْبِعة كانت معروفةً لدى بُوكُوك ورِسْك ورُوسِّي فإنه لم يُسْتَفَدْ منها بالحقيقة إلا في السنين الأخيرة من قِبَل السادة وِسْتِنْفِلْد[1] ولِبْرِخْت[2] وفِنْرخ[3]، ثم من قِبَلَ مسيومُنْك في المقالة النفيسة التي نشرها عن ابن رشد في مُعْجَم العلوم الفلسفية ثم نَقَلَها مع إضافات مهمة في كتابه «مجموعة مقالات عن الفلسفة اليهودية والعربية» 1859.

وُلِدَ الْقَاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد في قرطبة سنة 1126 (520هـ)، وقد اتفق ابن الأَبار والأنصاريّ على هذا التاريخ، ورَوَى عبد الواحد أنه قَارَبَ الثمانين حينما مات في سنة 595 (1198)، وذَكَرَ في شرحه للجزء الثاني من كتاب السماء[4] أنه شاهَدَ بنفسه حادثًا في سنة 1138، وتَجِدُ ذِكْرَيات قرطبة في مواضعَ كثيرةٍ من مؤلفاته، ولما أَتَى في شرحه لكتاب جوامع السياسة إلى ادعاء أفلاطون بأن الأغارقة شعبٌ ممتازٌ في حقل الثَّقافة العقلية ادَّعَى للأندلس[5] بهذا وفي الكليات (1 ،2، فصل 22) ذهب إلى خلاف جالينوس مُؤَكِّدًا أن الأقليم الخامس الذي تَقَعُ فيه قرطبة هو أطيبُ الأقاليم، ومن حديث انتهى إلينا خبرُه[6] أن مناظرةً جَرَتْ أمام المنصور بين ابن رشد وأبي بكر بن زُهْر حَوْل تَفْضيل أيٍّ من وَطَنَيْهَما على الآخر، فقال ابن رشد: «إذا مات عالمٌ بأَشْبِيليَّة فأُريد بَيْعُ كتبِه حُمِلَتْ إلى قرطبة حتى تُبَاعَ فيها، وإن مات مُطْرِبٌ بقرطبة فأُريد بيعُ آلاته حُمِلَتْ إلى أَشْبِيليَّة».

وكانت أُسْرَةُ ابن رشد من أكثر أُسَر الأندلس وجاهةً، وكانت تتمتع بتقدير عظيم في القضاء، وكان جَدُّه يُدْعَى مِثْلَه أبا الوليد محمدًا، وكان مِثْلَه قاضيَ قرطبة، وكان هذا الجَدُّ

(1) Geschichte der arabischen Aerzte und Naturforscher (غوتنغن 1840) ص 104- 108.

(2) Magazin fur die Literatur des Auslandes، برلين 1842، رقم 79، 83، 95.

(3) De auctorum graecorum versioibus et commentariis syriacis, arabicis, etc (لبسيا، 1842، ص166.

(4) صفحة 176: 5 (طبعة 1560).

(5) صفحة 496، وإذا ما اقتصر على الترجمة اللاتينية وجد أن حكمه في أمر فرنسا أقل ملاءمة، Concedimus aliam nationem ad aliuc virtutum genus melius a natura ess paratam, ut in Groecis facultas sciendi multo proestantior, in Gallis aliisque hujusmodi gentibus iracundid، بيد أن من المحتمل أن يكون المترجم قد أساء إدراك مناحي الألفاظ الأخيرة.

(6) المقري، الجزء الأول، 98 (طبعة دوزي ورايت إلخ)، غاينغوس، 1، ص 42، كاترمير: مذكرة حول ميل الشرقيين إلى الكتب، ص 40.

فقيهًا مشهورًا في المذهب المالكيّ، وتشتمل مكتبتا الإمبراطورية «مُلْحَق، باب 398)[1] على مجموعة ضخمة من فَتَاوَاه رَتَّبها إمامُ المسجد الكبير بقرطبة، ابنُ الوَرَّان، وكان يَظْهَرُ، بين من يُهْرَعون إلى معارف هذا القاضي العالم، جميعُ مُدُن الأندلس والمغرب والأمراءُ المرابطون، ولاتصال الفلسفة بعلم الكلام مكانُها[2] في هذه المجموعة، ويُخَيَّلُ إلى الناظر في كثير من صَفَحات هذا الكتاب الطَّرِيف أنه يَلْمُسُ أصولَ فكر الشارح[3]، وقد مَثَّلَ ابنُ رشدٍ الجَدُّ دورًا سياسيًّا مهمًّا، ومن ذلك أن ثارت فتنةٌ فعُهِدَ إليه أن يَحْمِلَ إلى ملك مَرَّاكُش[4] خضوعَ الولايات الأندلسية، ومن ذلك أن ساعد نصارى الأندلس على غَزْو الأَذْفُنْشِ المِحْرَاب لبلد الإسلام فذهب ابنُ رشدٍ الجَدُّ إلى مَرَّاكُشَ مُجَدَّدًا (31 من مارس 1126) ليَعْرِض على السلطان أمرَ الوَضْعِ الْخَطِر الذي يُوقِعُ البلدَ فيه هؤلاء الأعداءُ في الداخل، فكان من فِعْلِ نصائحه أن نُقِلَ الألوفُ من النصارى إلى سَلَا وإلى شواطئ بلاد البربر[5]، وكذلك ابنهُ الذي وُلِدَ سنة 1094وتُوُفِّيَ سنة 1168، والذي هو أبو فيلسوفنا، قد قام بمنصِب قاضي قرطبة[6]، فمن نَزَوَاتِ هذه الشهرة، التي تَجِدُ لها غيرَ مثالٍ، مِيزَ ابنُ رشدٍ، الذي بلغ صيتُ اسمه لدى اللاتين ما بَلَغَه اسم أرسطو تقريبًا، من آبائه المشهورين لدى العرب بصفة «الحفيد».

واقْتَدَى أبو الوليد بن رشد بأبيه وجَدِّه فكان علمُ التوحيد على مذهب الأشاعرة والفقهُ على المذهب المالكيِّ أولَ ما دَرَس، ويُثْنِي مترجموه على معارفه في الفقه ثناءَهم على معارفه في الطبِّ والفلسفة تقريبًا، ويُعَلِّقُ ابن الأبَّار، على الخصوص، أهميَّةً على هذا القسم من مؤلَّفَاته أعظمَ بمراحلَ مما يُعَلِّق على مؤلَّفَاته الأرسطوطاليسية التي نال بها شهرةً بالغة، وقد وضعه ابن سعيد في الطبقة الأولى من فقهاء الأندلس[7]، وقد تَخَرَّج في الفقه على أعلم فقهاء عصره[8] كما تَخَرَّج في الطبِّ علي أبي جعفر بنِ هارونَ الترجاليّ الذي تَرْجَمَ له ابنُ

(1) لابد من أن يكون قد جيء بهذا المخطوط من ديرسان فكتور إلى فرنسا في القرن الرابع عشر أو القرن الخامس عشر، وله جلد قديم من سان فكتور، وهو مذكور في قائمة هذا الدير التي وضعت والي هذا التاريخ تقريبًا (سان فكتور رقم 1122).

(2) صفحة 66، 83.

(3) ومع ذلك فإن هذا كان لا يستطيع معرفة جده الذي توفى في 28 من نوفمبر 1126، كما يثبت ذلك تعليق على المخطوط المذكور آنفًا، وتعليق آخر على مخطوط التكملة، باب 742، جزء 3 صفحة 100 (على الهامش).

(4) ليون الإفريقي، apud fabr، جزء 13، ص 282.

(5) دوزي: مباحث في تاريخ إسبانيا وآدابها في القرون الوسطى، (الطبعة الثانية، ليدن، 1860)، جزء1، ص 357 وما بعدها، غاينغوس، جزء2، ص 306، 307 كوند، قسم 3، فصل 29، أجد في تاريخ 1148 ابن رشد آخر تدخل في شؤون إفريقيا (المجلة الآسيوية، أبريل- مايو 1853، 385).

(6) منك: مجموعة مقالات، ص 419.

(7) المقري، 2، 122 (طبعة دوزي، إلخ).

(8) ابن الأبار (انظر إلى الذيل 1).

أبي أُصيبعة[1]، ومهما يَكُنْ من قَوْل هذا المترجم للرجال فإن من المستحيل أن يكون قد تَلَقَّى دروسًا من ابن باجَّة المتوفَّى سنة 1138 على الأكثر وإن كان من شأن تماثلِ المذهب وما يُحَدِّث به من احترام بالغ عن هذا الرجل العظيم يُجِيزُ عَدَّه تلميذًا له من حيث العمومُ، وهكذا فإن ابن رشد عاش في مجتمعٍ مؤلَّفٍ من جميع مشاهير عصره، ويَصْدُر ابنُ رشدٍ بفلسفته عن ابن باجَّة مباشرةً، وكان ابنُ طفيل عاملَ طالعه كما نُبَيِّن ذلك عما قليل، وكان ابنُ رشدٍ في جميع حياته على أوثق صلاتٍ بأُسرة أبناء زُهْر الكبيرة التي يَتَجَلَّى فيها كلُّ تقدمٍ علميّ اتَّفَقَ لإسبانيا الإسلامية في القرن الثاني عشر، أي كان أبو بكر بن زُهْر الشابُّ زميلا لهً في خِدَم طبيب الملك، وكانت الصداقة التي تَرْبطه بمؤلِّف كتاب التيسير، أبي مروان ابن زُهْر، من الإحكام ما رَغِبَ معه ابنُ رشدٍ، حينما أَلَّفَ كتاب الكليات، أن يؤلِّف صديقُه هذا رسالةً في الجزئيات كيما يتألفُ من اجتماع كتابيهما مؤلَّفٌ كامل[2] في الطبّ، ثم قامت صلةٌ بين ابن رشد والمتصوف ابن عربيّ الذي لم يَعُدَّه، مع ذلك، مريدًا يُرْكَنُ إليه، ويَرْجو قاضي قرطبة، ابنُ رشد، من ابن عربيّ أن يُطْلِعَه على أسرار علمه فَيَتَحَوَّلُ ابن عربيّ عن كشفها له برؤيا رَبَّانية[3].

ولم يَخْلُ شُغْلُ ابنِ رشدٍ العامُّ من رونق، وذلك أن التعصب الذي كان روحَ ثورة الموحدين ازْدُجِرَ بمُيُول عبدِ المؤمن ويوسفَ الحرةِ، وأن سقوط المرابطين عُزِي إلى ما أَمَروا به من إتلاف الكتب، وأن عبد المؤمن مَنَعَ بِشِدَّةٍ وقوعَ هذه الأفعال الوحشية[4]، وأنه كان لابن زُهْر وابن باجَّة وابنِ طفيل وابن رشد، الذين هم فلاسفةُ ذلك العصر، مقامٌ في بَلَاطه، فلما حَلَّت سنة 1153 (548هـ) وَجَدْنَا ابنَ رشدٍ يَقُوم، على ما يحتمل، بمساعدة عبد المؤمن على ما كان يَرَى من إقامة ما شاد من مدارسَ في ذلك الحين، غيرَ غافلٍ عن أرصاده الفلكية[5] في هذا السبيل، وظَهَرَ يوسفُ، الذي خَلَفَ عبدَ المؤمن، أكثرَ أمراء عصره ثَقافةً، ونال ابن طُفَيْل نفوذًا بالغًا إلى الغاية في بَلاطه فاستغلَّه لاجتذاب العلماء إليه من جميع البلدان، فلابن طُفَيْلٍ يُعَدُّ

(1) ابن أبي أصيبعة، في غاينغوس، جزء1، ص -17 18، الغزيري، جزء2، ص 84.

(2) هذا ما أطلعنا عليه ابن رشد نفسه في خاتمة الكليات التي بترت في الترجمات اللاتينية ولكن مع حفظها لنا من قبل ابن أبي أصيبعة كاملة (انظر إلى الذيل3)، وفي الترجمات العبرية، انظر إلى: Steinschneider, Catal Codd, hebr, Acad, Lugd, Bat، ص 312، تعليق.

(3) Eleischer, Catal, Cad, arab، لبسك، 492.

(4) المجلة الآسيوية، فبراير 1848،ص 196.

(5) شرح كتاب السماء، ص 179، منك، راجع ص 420، 421، كونده، قسم 3، فصل 43، عزا ليون الإفريقي (في تاريخه عن إفريقيا، 2، ص60) إقامة هذه المعاهد إلى يعقوب المنصور.

ابنُ رشدٍ مدينًا بشرف المكانة عند الأمير، وقد رَوَى المؤرخُ عبد الواحد على لسان أحد تلاميذ ابن رشد قصةَ تقديمه الأول كما كان من عادة هذا الشارح أن يَذْكُرَها[1]، قال ابن رشد:

«لَمَّا دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدتُه هو وأبا بكر بن طُفَيْل ليس معهما غيرُهما، فأخذ أبو بكر يُثْني عليَّ ويَذْكُر بيتي وسَلَفِي، ويضمُّ بفضله إلى ذلك أشياءَ لا يَبْلُغها قَدْري، فكان أولَ ما فاتحني به أميرُ المؤمنين، بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونَسَبي، أن قال لي: «ما رأيُهم في ا لسماء، يَعْني الفلاسفة، أقديمةٌ هي أم حادثة؟»، فأدركني الحياءُ والخوف، فأخذتُ أتعلَّلُ وأُنْكِرُ اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أَدْرِي ما قَرَّر معه ابنُ طفيل، فَفَهِمَ أميرُ المؤمنين مني الرَّوْعَ والحياءَ، فالتفَت إلى ابن طفيل وَجَعَلَ يتكلمُ على المسألة التي سألني عنها، ويَذْكُر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميعُ الفلاسفة، ويُورِد مع ذلك احتجاجَ أهل الإسلام عليهم، فرأيتُ منه غزارةَ حفظٍ لم أظنُّها في أحدٍ من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يَزَلْ يَبْسُطُني حتى تكلمتُ، فَعَرَفَ ما عدني من ذلك، فلما انصرفتُ أمَرَ لي بمالٍ وخِلْعَةٍ سَنِيَّة ومَرْكَب». وإذا ما وَجَبَ تصديقُ ذاك المؤرخ[2] وُجِدَ أن إقدامَ ابن رشدٍ على شروحه لأرسطو نتيجةٌ لرغبةِ يوسفَ وإلحاحِ ابن طُفيل، فقد كان ابن رشد يقول: «استدعاني أبو بكر بن طُفَيْل يومًا قال لي: سمعت اليوم أميرَ المؤمنين يَتَشَكَّى من قَلَقَ عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويَذْكُر غموضَ أغراضه، ويقول: «لو وَقَعَ لهذه الكتب من يُلَخِّصُها ويُقَرِّب أغراضها بعد أن يَفْهَمها فَهْمًا جيدًا لقَرُبَ مأخذُها على الناس، فإن كان فيك فَضْلُ قوةٍ لذلك فافْعَل، وإني لأرجو أن تَفِيَ به، لِمَا أعلمه من جَوْدة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نُزُوعك إلى الصِّناعة، وما يَمْنَعُني من ذلك إلا ما تَعْلَمُه من كِبْرَة سِنِّي واشتغالي بالخدمة وصَرْف عنايتي إلى ما هو أهمُّ عندي منه»، قال أبو الوليد: فكان هذا الذي حَمَلَني على تلخيص ما لَخَّصْتُه من كتب الحكيم أرسطو طاليس»، ولا رَيْبَ في أن ابن رشد هو الذي أَلْمَعَ إليه ابن طُفَيْل في العبارة الآتية من قصته الفلسفية: «ولم يَكُنْ فيهم (بالأندلس) أثقبُ ذهنًا ولا أصحُّ نظرًا ولا أصدقُ رويةً من أبي بكر بن الصائغ.. وأما من كان معاصرًا له ممن لم يُوصَفْ بأنه في مثل درجته فلم نَرَ له تأليفًا، وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعدُ في حَدِّ التزايد.. على غير كمال...[3]».

(1) طبعة دوزي، ص 174 - 175، راجع ليون الإفريقي في فصل ابن طفيل، ص 280، منك، راجع ص 411، 421، 422.
(2) المصدر نفسه: ص 175.
(3) Philos, autodid, Prooem، ص 16، (طبعة بوكوك، 1671).

ولم ينفكَّ ابن رشدٍ يتمتَّع، في عهدِ يوسفَ بحُظْوَةٍ مستمرة، ويَشْغَلُ أرفعَ المراتب، فقد نُصِبَ قاضيًا لأَشْبيليَّة[1] في سنة 565 (1169م)، وقد اعتذر في عبارةٍ جاءت في شرحه للجزء الرابع من كتاب أجزاء الحيوان الذي أتَّمه في تلك السنة من الأغاليط التي أَمْكَن أن يأتيها بانهماكه في شؤون الوقت وبُعْدِه مِن بيته في قرطبة حيث جميعُ كُتُبِه[2]، ويَجِبُ أن يُجْعَلَ رجوعه إلى قرطبة[3] حَوَاليْ سنة 567 (1171م)، ولا مِرَاءَ في أنه أَلَّفَ شروحَه الكبرى منذ هذا الزمن، وما أكثر ما تَوَجَّعَ فيها من شَوَاغَله بالشؤون العامة التي تَحْرِمُه ما يحتاج إليه التأليف من الوقت وراحة البال، ويقول في آخر الجزء الأول من كتاب مختصر المَجِسْطِي إنه اضْطُرَّ إلى الاقتصار على أهمِّ القضايا مُشَبِّهًا نفسَه برجلٍ يَضْغَطُه حريق فيُنْقِذ نفسَه آخذًا معه ألزمَ الأشياء فقط[4]، وكانت خِدَمُه تَحْمِلُه على القيام برِحْلات كثيرة في مختلف أقسام دولة الموحدين، فنجده في هذا الجانب أو ذاك من المَضِيق، أي مَرَّاكُشَ وأَشْبيلية وقرطبة مؤرِّخًا شُرُوحَه بهذه المدن، ومن ذلك أن أَلَّفَ في مَرَّاكُشَ سنة 1178 قسمًا من «جوهر الأجرام السماوية» وأنه أَتَمَّ في أَشْبِيليَّة سنة 1179 إحدى رسائله في علم الكلام، وأن يوسفَ دعاه إلى مَرَّاكُش مُجَدَّدًا وعَيَّنَه طبيبَه الأول بدلًا من ابن طُفَيْل[5]، ثم وَلَّاهُ مَنْصِبَ قاضي الجماعة الرفيعَ الذي كان يَشْغَلُه أبوه وجَدُّه، ونراه قد نال في عهدِ يَعقوبَ المنصورِ بالله من الحُظْوَة ما لم يَنَلْه قَبْلَ ذلك قَطُّ، وذلك أن المنصور كان يُحِبُّ محادثتَه في الموضوعات العلمية، وكان يُجْلِسُه على الوِسَادة المُعَدَّة لأكثرِ الناس حُظْوَةً لديه، وكان ابنُ رشد يَبْلُغ من الدَّالَّة في هذه الأحاديث ما يخاطب معه مولاه بـ«تسْمَعُ يا أخي»[6]، وبينا كان المنصورُ يتأهَّبُ في سنة 591 (1195م) لِقتَال الفنش التاسع القشتاليِّ، الذي انتهى بانتصار المنصور في الأَرَكِ كُنَّا نَرَى الشائبَ ابنَ رشد بجانبه، ويَرْوِي ابن أبي أصيبعة، مع التفصيل، خبرَ ما غُمِرَ به في هذا الظَّرْف من الحُظُواتِ المثيرة لحسد أعدائه فكانت هذه الحُظُواتُ، لا رَيْبَ، سببًا رئيسًا للمصائب التي سَمَّمَتْ سِنِي حياتِهِ الأخيرةَ.

---

(1) نراه قد أبدى بهذه الصفة في خبر رواه عبد الواحد (طبعة دوزي، ص 222).

(2) منك، راجع صفحة 422، وقد أورد باتريزي هذه العبارة (النقاش المشائي، 1، 9 صفحة 94، فنسيا، 1571)، وقد حرفت في طبعة الجونت، المعارضة، جزء 6، ص 103: 5 (طبعة 1550).

(3) انظر إلى منك للاطلاع على النقاش الذي دار حول هذه التواريخ، راجع ص 422، 423.

(4) منك، المصدر نفسه.

(5) نورنبرغ، Annales regum Mauritanioe، ص 182، كونده، قسم 3، فصل 47.

(6) يفترض مسيو دوغايغوس أن المنصور هو الذي تكلف إطلاق كلمة الأخ على ابن رشد، بيد أن التفسير الذي أتاه مسيو منك أدعى إلى الارتياح.

والواقع أن ابن رشد فَقَدَ حُظْوَتَه لدى المنصور الذي نفاه إلى مدينة اليُسانَةَ القريبة من قرطبة، وَفْقَ ما يسود البَلَاطَاتِ الإسلاميةَ عادةً، وكان اليهود يَسْكُنُون اليُسانةَ فيما مضى، ولا رَيْبَ في أن هذا الأمر هو مدارُ القصة التي اعتمد ليونُ الإفريقيُّ عليها والتي سَهُلَ قبولُها والتي جَعَلَتْ للفيلسوف المُضْطَهَدَ ملجأً لدى تلميذه المزعوم موسى بن ميمون، حتى إنه يَظْهَرُ أن أعداءه حاولوا أن يَحْمِلُوا على الاعتقاد بأنه من أصلٍ يهوديّ[1].

وقد أثارت عواملُ نَكْبَة ابن رشد عِدَّةَ حَدْسِيَّات، فبعضُهم يَذْكُر أن من أسباب نَكْبة هذا الفيلسوف اختصاصَه بأبي يحيى أَخِي المنصور[2]، وبعضٌ آخر يحاول أن يَجِدَ علةَ نكبته في عدم مجاملته لأمير المؤمنين، فقد روَى عبد الواحد[3] وابنُ أبي أُصيبعة[4] أن ابنَ رشدٍ صَنَّف كتابًا في الحيوان، وأنه لَمَّا ذَكَرَ الزرافةَ قال: «قد رأيتُ الزرافة عند مَلِك البربر[5]» قاصدًا بذلك يعقوبَ المنصور، «جاريًا في ذلك، على قول عبد الواحد، على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم، غيرَ مُلْتَفِتٍ إلى ما يتعاطاه خَدَمة الملوك ومُتَحَيِّلُو الكُتَّاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطُّرُق»، بَيْدَ أن هذه الحرية غاظت المنصورَ الذي عَدّ تعبيرَ «مَلِك البربر» تحقيرًا له، ومما اعتذر به ابن رشد أنه قال: «إنما قلتُ مَلِك البَرَّيْن، وإنما تَصَحَّفَتْ على القارئ فقال ملكَ البربر»، قاصدً بالبرين إفريقيا والأندلس، والواقعُ أن إحدى هاتين الكلمتين لا تُمازُ من الأخرى بغير النِّقَاط.

ويُوجَدُ خبر آخرُ نَقَلَه إلينا الأنصاريُّ[6] عن عقيدة الكلاميِّ الذي مَثَّلَ دورًا رئيسًا في ذلك، «وذلك حينَ شاعَ في المشرق والأندلس على ألسنة المُنَجِّمَة أن ريحًا عاتيةً تَهُبُّ في يوم كذا ويوم كذا في تلك المُدَّة تُهْلِكُ الناس[7]، واستفاض ذلك حتى اشتدَّ جَزَع الناس منه واتخذوا

(1) الأنصاري، الصفحة 7 من المخطوط، (انظر إلى الذيل 2)، ويرى مسيو دوزي (في الصفحة 90 من عدد المجلة الآسيوية الصادر في يوليه 1853) أن من الممكن ألا يكون أعداء ابن رشد قد ابتعدوا عن الحقيقة، ويستند في هذا إلى أمرين:

1 - كون الأطباء والفلاسفة في الأندلس يكادون يكونون كلهم من أصل يهودي أو نصراني.

2 - كونه لم يذكر أحد ممن ترجم لابن رشد اسم القبيلة العربية التي ينتسب إليها، وهذا لم يقع نحو العرب الحقيقيين، ومع ذلك أوجه النظر إلى أن الدور الذي مثله أبو ابن رشد وجده هو من الأدوار التي لا تناسب غير الأسر البالغة القدم في الإسلام وأن تاريخ مزاولة الطب من قبل بني رشد لم يبدأ بغير فيلسوفنا.

(2) الأنصاري أيضًا. (3) طبعة دوزي، ص224، 225.

(4) انظر إلى الذيل 3، وتقرأ عين الرواية في هامش مقالة الأنصاري الترجمية، ولكنها كتبت بيد أخرى.

(5) والواقع أن هذه العبارة تقرأ في شرح الفصل الثالث من الباب الثالث من رسالة أقسام الحيوان (منك، ص 426، تعليق)، وتجد مثل هذه العبارة في آخر شرح الجزء الثاني من السماء، ص177 (طبعة 1560).

(6) الصفحة 8 من المخطوط، (انظر إلى الذيل 2).

(7) قام هذا الرأي على اقتران السيارات الذي حدث سنة 581هـ أو سنة 582هـ انظر إلى دفريميري، المجلة الآسيوية، يناير 1849، الصفحة 16 وما بعدها، راجع ميشو، مكتبة الحروب الصليبية، جزء 2، 772 - 773»، جزء 4، ص 209، تعليق.

الغِيرانَ والأنفاقَ تحت الأرض تَوَقِّيًا لهذه الريح، ولما انتشر الحديث بها وطَبَّقَ البلاد اسْتَدْعَى والي قرطبة إذْ ذاك طَلَبَتَها وفاوضهم في ذلك وفيهم ابنُ رشد، وهو القاضي بقرطبة يومئذ وابنُ بُنْدُود، فلما انصرفوا من عند الوالي تَكَلَّم ابنُ رشد وابن بُنْدُود في شأن هذه الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات الكواكب، قال شيخُنا أبو محمد عبدُ الله الكبير: «وكنتُ حاضرًا فقلتُ في أثناء المفاوضة: إن صحَّ أمرُ هذه الريح فهي ثانية الريح التي أهلك الله تعالى بها قومَ عادٍ إذْ لم تُعْلَم ريحٌ بعدها يَعُمُّ إهلاكُها، فانبرى إليَّ ابنُ رشد ولم يتمالك أن قال: واللهِ وجودُ قوم عادٍ ما كان حَقًّا، فكيف سببُ هلاكهم، فَسُقِط في أيدي الحاضرين وأكبروا هذه الزَّلَّة التي لا تَصْدُر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لِمَا جاءت به آياتُ القرآن»، ويُعَدُّ النقدُ التاريخيُّ ذنبًا يَظْهَرُ علماء الكلام أقلَّ مَنْ يَصْفَحُون عنه، ويَغْتَنِمُ أعداءُ ابن رشد فرصةَ هذه الزَّلَّة التي أسفرت عنها تلك المُشَاوَرَة لِعَرْضِ القاضي البالغِ البصيرةِ زنديقًا كافرًا.

ثم يَرْوِي عبدُ الواحد أن أعداء ابن رشد حَصَلُوا على مخطوطٍ مكتوبٍ بيده مشتملٍ على شروحٍ له، ومما وَجَدُوا فيه عبارةٌ منقولةٌ عن مؤلفٍ قديم نَصُّها: «فقد ظَهَرَ أن الزُّهْرَةَ أحدُ الآلهة...»، فأطلعوا المنصور على هذه العبارة بعد عَزْلها عما تقدمها عازِين إياها إلى ابن رشد واجدين فيها وسيلةً لعَدِّه مشركًا[1].

ومهما يَكُنْ من أمر هذه الحكايات فإنه لا يُمْكِنُ الشكُّ في أن الفلسفة كانت عاملَ مِحْنَةِ ابن رشد الحقيقيَّ، وذلك أنها صنعتْ له من الأعداء الأقوياء من جعلوا صحةَ اعتقاده موضعَ شبهةٍ لدى المنصور[2]، وكذلك كان جميعُ المُثَقَّفِين، الذين أثار طالعُهم الحسدَ، عُرْضَةً لعَيْن الاتهامات، ويَدْعو المنصور أعيانَ قرطبة، ويأمر بحضور ابن رشد، ويَلْعَنُ مبادئَه، ويَقْضِي بنفيه، ويأمر الأميرُ في الوقت نفسه بإرسال مراسيمَ إلى الأقاليم لمنع الدِّرَاسات الخَطِرَة ولِصُنْع ما يقتضيه إحراقُ جميع الكتب التي تتناول هذه الدِّرَاسات، ولم يُسْتَثْنَ من ذلك غيرُ ما هو خاصٌّ بالطبِّ والحساب وأَوَّليات علم النجوم التي لا غُنْيَةَ عنها للتوصل إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سَمْتِ القِبْلَة[3]، وقد حَفِظَ لنا الأنصاريُّ نَصَّ التعزيرِ الكاملَ الذي

(1) طبعة دوزي، ص 224.

(2) يمكن أن ترى شواهد كثيرة على ذلك جمعها الأنصاري (انظر إلى الذيل 2)، والمقري (جزء 2، ص125، طبعة دوزي، إلخ، وغاينغوس، جزء1، ص198)، راجع ابن خلدون، جزء1، ص 329، 330، ترجمة، جزء2، ص 214 (طبعة دوسلان)، وفي غاينغوس، جزء2، ذيل، ص 64.

(3) عبد الواحد، طبعة دوزي، ص 224، 225، دوهامر، المجلة الآسيوية، فبراير 1848، ص196، Literaturgeschichte der Araber, Abth Band 1، ص 104، وما بعدها.

كتبه بأسلوبٍ مُفَخَّم كاتبُ الأميرِ عبدُ الله بنُ عَيَّاش فأُرْسِلَ في ذلك الحين إلى مَرَّاكُش وسائرِ مُدُن المملكة[1]، ويَنِمُّ كلُّ سطر من هذا البلاغ على الحقد التعصبيِّ الذي أثاره مذهبُ أحرار الفكر، ومن الصعب، مع ذلك، أن يُتَصَوَّرَ ما هو أتفهُ من هذه الشكوى التي كُرِّرَت ألفَ مرة باسم مَضَرَّاتٍ لم تنشأ عن خطأ أحدٍ والتي تَجِدُ علتَها فيمن يتوجَّعُون منها أكثرَ من غيرهم.

ودسائسُ البَلَاط هي التي قامت عليها فتنةُ إيذاء ابن رشد كما يُرَى، وذلك أن الحزبَ الدينيَّ وُفِّقَ لطرد الحزب الفلسفيِّ، وذلك أن ابن رشد لم يُضْطَهَد وَحْدَه، فقد ذُكِرَ أعيانٌ كثيرون من العلماء والأطباء والفقهاء والقضاة والشعراء قاسَمُوا ابنَ رشدٍ نكبتَه، قال ابنُ أبي أُصَيْبِعة: «ونَقَم «المنصور» أيضًا على جماعةٍ أُخَرَ من الفضلاء الأعيان... وأظْهَرَ أنه إنما فعل بهم ذلك بسبب ما يُدَّعى فيهم أنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل»، حتى إن نكبة الفلاسفة وَجَدَت من الشعراء مَنْ يَتَغَنَّوْنَ بها، ونُظِمَتْ قِطَعٌ كثيرةٌ من الشعر في هذه الفرصة، ومن ذلك أن المَدْعُوَّ أبا الحسين بن جُبَيْر، على الخصوص، أعْرَب عن غَيْظِه من ابن رشد ببعض اللواذع المؤذية التي ظهرت مستحبَّةً كثيرًا، لا رَيْبَ، عند الجُمهور الظافر[2]، قال أبو الحسين بن جُبَيْر:

الآن أَيْقَنَ ابن رُشْدٍ ... أن تَوَالِيفَهُ تَوَالِف

يا ظالمًا نَفْسَهُ تأمَّلْ ... هل تَجِدُ اليومَ مَن تُوَالِف[3]

وقال أيضًا:

لم تَلْزَم الرُّشْدَ يابن رُشْدٍ[4] ... لمَّا عَلاَ في الزمان جَدُّك

وكنتَ في الدين ذا رِيَاءٍ ... ما هكذا كان فيه جَدُّك

وقال أيضًا:

نَفَدَ القضاءُ بأخذ كل مُرَمَّدٍ[5] ... مُتَفَلْسِفٍ في دينه مُتَزَنْدِقِ

بالمنطق اشْتَغَلُوا فقيلَ حقيقةً ... إن البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطقِ[6]

---

(1) انظر إلى الذيل 2.

(2) مخطوطات تكميلية رقم 682 صفحة 8-9، انظر إلى الذيل2.

(3) نشرت هذه الأهاجي وترجمت من قبل مسيو منك، المصدر المذكور، ص 427، 428، 517.

(4) جناس حول اسم ابن رشد. (5) رمده: جعله في الرماد.

(6) ترى الجناس القائم على إبهام كلمة المنطق التي لها في العربية مثلما لها في اليونانية، وأعدل عن التنبيه إلى الجناسات التي تشتمل عليها القطع الأخرى، انظر إلى منك أيضًا.

ومع ذلك فإن مِحْنَةَ ابن رشد لم تَدُمْ طويلًا، فقد أَسْفَرَ انقلاب جديد عن إعادة الفلاسفة إلى حَظيرة الحُظْوة، وذلك أن المنصور لَمَّا عاد إلى مَرَّاكُش رَجِعَ عن المراسيم التي كان قد أمر بها ضِدَّ الفلسفة، وصار يُكِبُّ على الفلسفة بهِمَّةٍ مُجَدَّدًا، وأجابَ الوجوهَ والعلماءَ إلى ما سألوا فدَعَا إليه ابنَ رشدٍ ورفقاءَه في المحنة[1]، وعَهِدَ إلى أحدهم أبي جعفرٍ الذهبيِّ في مُهِمَّة الإشراف على كُتُبِ أطباء البَلَاط وفلاسفته.

وقد شَفَعَ ليونُ الإفْريقيُّ[2] نكبةَ ابن رشدٍ بتفاصيلَ سخيفةٍ عن الحِيل التي اتخذها أعداؤه لكَشْفِ القِنَاع عن إلحاده، وعن الأحوال المُخْزِية حَوْل انقباضه وإبعاده، ويَظْهَرُ أن هذه الحكاياتِ ليست من الصحة ما تستحقُّ أن تُنْقَلَ معه هنا، ومع ذلك فلا يمكنني أن أذهب إلى أنها من خيال ليون، فهو قد قرأها في كتابٍ عربيّ، ولا يُنْكَرُ كَوْنُ كثيرٍ من الأمور التي يَرْوِي يُذَكِّرُ بما حَكاه الأنصاري، ومما وَكَّدَه الأنصاريُّ أنه كان من عادة ابن رشد أن يقول: «إن أعظمَ ما طَرأَ عليَّ في النكبة أني دخلت أنا وولدي عبد الله مسجدًا بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فَثَار لنا بعض سِفْلَة العامَّة فأخرجونا منه»، وكادَ يَكُون جميعُ تلاميذه غيرَ أوفياءَ له، وكُفَّ عن الاحتجاج به، وكان أكثرهم جُرأةً يحاول أن يُثْبِتَ أن آراءه لم تَكُنْ مخالفةً لعقيدة المُسْلِم الصالح[3] بالمقدار الذي ظُنَّ، ومما حَدَث أن أحد علماء المشرق، تاجَ الدين بن حَمَوَيْه، الذي زار المغرب في ذلك الحين حاول الاجتماع بابن رشد من غير أن يُوَفَّقَ لهذا، لتشديد حال الانعزال الذي كان يعيش فيه هذا الفيلسوف المَنْفِيُّ[4].

وعاش ابن رشد قليلًا بعد أن عادت إليه حُظْوته، ومات ابنُ رشد في مَرَّاكُش متقدمًا في السِّنِّ، وكانت وفاتُه يومَ الخميس الموافق 9 من صفر[5] سنة 595 (11 من ديسمبر 1198م)، وهذا هو التاريخ الذي عَيَّنَه الأنصاريُّ، وجَعَلَ ابنُ أبي أُصَيْبِعة وفاةَ ابن رشد في أوائل سنة 595 أيضًا، ولكنه تَنَاقَضَ عندما زعم أن ابن رشد نال حُظْوة لدى محمد الناصر الذي خَلَفَ يعقوبَ المنصور في 22 من ربيع الأول سنة 595 (2 من يناير 1199)[6]، ولا سيما عند النظر

(1) ابن خلدون أيضًا، ابن الأبار (انظر إلى الذيل1).

(2) Apud Fabr. Bibl. gr، جزء 13، ص 285 - 287، بيل، معجم، مادة ابن رشد، تعليم م. بروكر، تاريخ النقد الفلسفي، جزء3 ، ص100 - 101.

(3) الأنصاري (الذيل 2)، راجع منك، ص 427.

(4) الذهبي، المكتبة الإمبراطورية، أساس قديم، باب 753، ص81 (انظر إلى الذيل 4) وقد ذكر ابن حمويه أن ابن رشد مات وهو محبوس، فهذا خطأ لا ريب.

(5) يستند ابن الأبار إلى من روى وقوع هذا الحادث في شهر ربيع الأول من تلك السنة.

(6) روى ابن الأبار أن ابن رشد توفى قبل موت المنصور بشهر واحد تقريبًا، وهذا صحيح، (انظر إلى الذيل 1).

إلى أنه جعل إعادة المنصور لابن رشدٍ في سنة 595هذه، وقد أَجمع على سنة 595 ابنُ عربيّ، الذي شَهِدَ جنازتَهُ، واليافعيّ ومحمدُ بن عليّ الشاطبيّ ومؤرخو المسلمين على العموم[1]، وقد انحرف عن هذا التاريخ قليلًا عبدُ الواحد والذهبيُّ اللذان وضعا وفاة الشارح في أواخر سنة 594[2]، أي في شهر أغسطس أو سبتمبر من سنة 1198، وليُونُ الإفريقيُّ وحدَه هو الذي أخَّر وفاتَه إلى سنة 1206[3] ونَعْلَمُ من الأنصاريِّ أن ابن رشد دُفِنَ في مَرَّاكُش، وذلك في الجَبَّانة الواقعة خارج باب تاغَزُوت، فلما مَضَتْ على وفاته ثلاثة أشهر حُمِل إلى قرطبة حيث دُفِنَ في رَوْضَة سلفه بمقبرة ابن عباس[4]، والواقعُ أن ابن عربيّ يَرْوِي أنه شاهد تحميل جُثَّته على دابَّة لتُنْقَلَ إلى قرطبة[5]، ويُؤَكِّدُ لِيُونُ الإفْرِيقيُّ، من ناحيةٍ أخرى، أنه شاهد قَبْرَه وكتابةَ لَحْدِه في مَرَّاكُش بالقرب من باب الدَّبَّاغين[6].

وقد خَلَّف ابنُ رشدٍ ولدًا كثيرًا، وقد عَكَفَ بعضُهم على دِراسة علم الكلام والفقه وغَدَوْا قضاةَ مُدُنٍ وكُوَرٍ، وكان أحدُهم، أبو محمد عبد الله، مشهورًا في صِنَاعة الطبِّ، وتَرْجَمَ له ابنُ أبي أُصَيْبِعة عَقْبَ ترجَمته لأبيه[7]، وكان يَطِبُبُّ الناصرَ، وله من الكتب مقالة في حيلة البُرْءِ، وما كانت جميع هذه الأحوال لِتَحْمِلَ على تصديق رواية جِيلْ دُورُوم حَوْل إقامة أبناء ابن رشد في بَلاط هُوهِنْشتاوْفِن[8].

ومات ابن البيطار وعبد الملك بن زُهْر في السنة نفسِها تقريبًا، وكان أبو مروان ابن زُهْر وابنُ طُفَيْل قد ماتا منذ زمنٍ، وهكذا فإن فريق الفلاسفة والعلماء توارى من الأندلس والمغرب في وقتٍ واحدٍ تقريبًا، أي في السنين الأخيرة من القرن الثاني عشر، ويَزُور مؤرخُ الموحدين، عبدُ الواحد[9]، بلادَ المغرب في سنة 595 (1198 - 99)، فيَجِدُ قَيْدَ الحياة، ولكن مع تقدم في

---

(1) اليافعي، مخطوط قديم، أساس، باب 644، ص 141، محمد بن علي، أساس قديم باب 616، ص 184، 5، يدحض ابن الأبار رأيًا آخر قائلًا حول هذا التاريخ.

(2) عبد الواحد، طبعة دوزين ص 225، الذهبي الذيل 4.

(3) ذهب رنسيوس وبوكوك ودربلو إلى سنة 1198، وتابع موريري وأنطونيو ودو روسي ليون الإفريقي، وأخطأ هوتنغر في تحويل السنين الهجرية إلى السنين الدارجة فجعل موت ابن رشد في سنة 1225، ونقل مدلدورف ذلك عنه، وسار آخرون على غير هدى، فذهب تنمان إلى سنة 1217 أو سنة 1225، وذهب سبرنغل إلى سنة 1217، وذهب برتولكشي إلى سنة 1216، ولم يكن عند المؤلفين الأقدم من أولئك غير خبر جيل دو روم عن أبناء ابن رشد، فاتبعوا تاريخًا أكثر تقلبًا، وبيير دابانو Concil, Controv، ص 14: 5، البندقية 1565)، وباتريزي (النقاش المشائي، جزء1، 1، 10، ص 94، البندقية 1671)، وباجي ad Baronium ann. 1197، رقم11)، فقط، هم الذين فكروا في الانتفاع بالتواريخ التي تنطوي عليها اكتتابات الرسائل.

(4) قال ابن الأبار مثل هذا تقريبًا، راجع محمد بن علي الشاطبي (رقم 616، أساس قديم).

(5) فليشر Codd, arab، لبسك، ص 492. (6) فابريسيوس، جزء13، ص288.

(7) مخطوط، ملحق، باب 673، ص 203. (8) انظر إلى الجزء الثاني الآتي، فصل 2: 14.

(9) المعجب في تلخيص تاريخ المغرب، طبعة رينارت دوزي، (ليدن، 1847)، مقدمة، ص 6.

السِّنّ، الحفيدَ أبا بكر بن زُهْر، ويُنْشِدُه أبو بكر هذا قِطَعًا من شعره، ويَلْقى في مُرَاكُشَ سنة 603 (1206 - 7) ابنَ ابنِ طُفَيْل، ويُنْشِدُه هذا الابنُ قصائدَ من شِعْر أبيه، وعادَ لا يُغْتَذَى بغير ذكريات الماضي وعَنْعَنَاته التي أخذت تَضعُفُ يومًا بعد يوم.

3 - عواملُ نكبة ابن رشد، وما أَصاب الفلسفة من اضطهادٍ لدى المسلمين في القرن الثاني عشر

تُعَدُّ نكبةُ ابن رشد وما ثار حِيَالَه من رِيَبِ الإلحاد أبرزَ ما وَقَفَ خيالَ معاصريه، وتَرَى جميعَ مؤرخي المسلمين ومترجمي الرجال مُجْمِعين على هذه الناحية، وما كان من تَنَوُّع الأحوال التي يَرْوُون بها الحادثَ أفضلُ دليلٍ على ما أحدث من أَثَر، ومع ذلك فإن تلك الاضطهاداتِ لم تَكُنْ حادثًا منعزلًا، ففي أواخر القرن الثاني عشر نُظِّمَتْ حربٌ على الفلسفة في جميع العالَم الإسلاميّ[1]، وذلك أن رَجْعِيَّةً كلامية، كالتي عَقَبَتْ في الكنيسة مؤتمرَ ترَنْتَ الدينيَّ، بَذَلَتْ وُسَعها لتستردَّ بالبرهان والقوة ما أضاعت من بِقَاع، ولم ينفكَّ الإسلامُ، ككثيرٍ من المبتدعات الدينية، يشتدُّ وينال من أتباعه إيمانًا أكثرَ إطلاقًا، وما كاد أصحاب محمد يؤمنون برسالته الفائقة للطبيعة، وسِيقَ عدمُ التصديق إلى أقصى حدوده في القرون الستة الأولى من الهجرة، وعلى العكس لا ارتيابَ ولا اعتراضَ في القرون الحديثة، فلما أَفْلَتَ الإسلام بالتدريج من سلطان العِرْق العربيِّ المُرْتاب جوهرًا، وصار بفعل عوارض التاريخ قبضةَ عروق تَوَّاقَة إلى التعصب، كالإسبان والبربر والفُرس والترك، سَلَكَ سبيلًا اعتقاديًّا صارمًا مانعًا لِمَا سواه، وأَصَابَ الإسلامَ ما أصابَ الكَثْلَكَة في إسبانيا وما كان يصيب جميعَ أوربا لو تَمَّ للرَّجْعِ الدينيِّ في أواخر القرنِ السادسَ عشرَ وأوائل القرنِ السابعَ عشر إخْمادُ كلِّ تقدم عقليّ، وتَعُمُّ الأشعريةُ، التي هي ضَرْب من التوفيق بين العقل والدين، والتي تشابه علمَ اللاهوت الحديث، بلادَ مصرَ في عهد صلاح الدين، وبلادَ الأندلس في عهد الموحِّدين، وتَظَلُّ مذهبَ أهل السنة حتى أيامنا، ويُرْغَى ويُزْبَد من منابر كلّ ناحيةٍ حِيَالَ أرسطو والفلاسفة[2]، وتُحْرَقُ بأمرٍ من

(1) لا تزال كلمة فيلسوف تعد شتيمة مرادفة للزنديق والفاسد، كما تعد كلمة فرماسون (البناء الحر)، انظر إلى كتاب (رحلة إلى الوادي) الذي نشره الدكتور برون، ص 663.

(2) ترى معظم المؤرخين والمؤلفين في موضوعات شتى من العرب، كأبي الفداء والمقريزي، قليلي العطف على الفلسفة، راجع تاريخ أبي الفداء 4، 255، دو ساسي: بيان الديانة الدرزية، مقدمة، ص22، فلوغل: الكندي، ص 15، وذلك في Abhandl. fur die Kunde des morg، جزء1.

الخليفة المُسْتَنْجِد، في سنة 1150، جميعُ الكتب الفلسفية في مكتبة أحد القضاة، ولا سيما كتبُ ابن سينا والموسوعةُ المسماةُ رسائلَ إخوان الصفا، ويُتَّهَمُ الطبيبُ الرُّكْنُ عبد السلام بالزندقة، ويُبَاشَرُ إتلافُ كتبه باحتفال، ويَصْعَدُ العالِم، الذي كان يرأس الاحتفالَ، في المِنْبَر ويَحْمِل على الفلسفة، ثم يتناول المجلداتِ واحدًا فواحدًا ويَنْطِق ببعض الكلمات لبيان إثْمِها، ثم يُسَلِّمُها إلى من يَقُومون بإحراقها[1]، وقد كان تلميذُ ابن ميمون المُفَضَّل، الرَّبَّانيُّ يَهُودًا، شاهدًا على هذا المنظر الغريب، فقال: «لقد شاهدتُ في يد العالِم كتابَ ابن الهَيْثم في الفلك، ويشير العالِمُ إلى الدائرة التي عَرَضَ هذا المؤلفُ بها الفلكَ، ويقول بصوتٍ عالٍ: «هذا هو البلاءُ العظيم، هذه هي المصيبة التي يَعْجِزُ عن بيانها اللسان، هذه هي النكبة القاتمة!»، وقد مَزَّق الكتابَ وهو يقول هذا وألقاه في النار[2]».

وكان جميع فلاسفة الأندلس في عصر ابن رشد عُرْضةً للاضطهاد مِثْلَه[3]، وذلك أن الموحِّدين صَدَرُوا عن مذهب الغزاليّ مباشرةً، وأن مؤسس حزبهم بإفريقيا كان تلميذًا لعدوِّ الفلسفة هذا[4]، وأن ابن باجَّة، الذي هو أستاذٌ لابن رشد، كَفَّرَ بالسجن عن تُهَمِ الإلحاد التي كانت لاصقةً به، وأنه لم يُطْلق منه إلا بنفوذ أبي ابن رشد الذي كان قاضيَ الجماعة[5] في ذلك الحين، إذا ما صُدِّقت روايةُ ليونَ الإفريقيِّ، وأن ابن طُفَيْل عُدَّ مؤسِّسَ الإلحاد الفلسفيّ، وأستاذًا لابن رشدِ وابنِ ميمون في الزندقة[6]، وأن الفيلسوف مالكَ بن وهيب الأِشْبِيليَّ المعاصرَ لابن باجّة رأى أنه مُضْطَرٌّ إلى قَصْرِ تعليمه على أول الصِّناعة الذهنية، وأنه عَدَلَ عن المعارف الفلسفية عُدُولًا تامًّا وحَظَر على نفسه كلَّ حديث في هذا الموضوع لِمَا فيه من خَطَر الهلاك، وأقبل على علوم الشريعة، «ولم يَكُنْ يلوح على أقواله ضياءُ هذه المعارف، ولا قَيَّد فيها باطنًا شيئًا أُلْفِيَ بعد موته[7]»، وأنه كان يُلْجَأُ إلى ما هو أشدُّ من ذلك أحيانًا، فقُتِل ابنُ حبيبٍ الإشبيليُّ لاشتغاله بالفلسفة، وأضاف المؤرخُ الذي رَوَى هذا النبأ قولَه عن الفلسفة: «وهذا العلم

(1) أبو الفرج، تاريخ مختصر الدول، ص 451، المتن، منك، المقالات، ص 334.

(2) المجلة الآسيوية، يوليه 1842 (ص-18 19)، مقالة مسيو منك.

(3) روى مؤلف القرطاس أن جد ابن رشد عزل من منصب قاضي الجماعة بقرطبة لمؤلفاته الأدبية والفلسفية، غير أنه يشك في هذه الرواية فنسأل ألا تنطوي على التباس في ابني رشد، راجع تورنبرغ، Ann regum Mauritanioe، ص 144، بتس دولا كروا، في المكتبة الإمبراطورية، أساس الترجمات، رقم 97 مكرر، ص 154: 5.

(4) راجع عبد الواحد والمراكشي (طبعة دوزي)، ص 124.

(5) ليون الإفريقي apud fabr. Bibl, gr، جزء 13، ص 279.

(6) المصدر نفسه.

(7) ابن أبي أصيبعة، في ترجمته لابن باجة (مخطوط، المكتبة الإمبراطورية، ص 192).

ممقوتٌ بالأندلس لا يستطيع صاحبُه إظهارَه، فلذلك تَخْفَى تصانيفُه... وكان مُطَرِّف الأَشْبِيليُّ في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن، إلَّا أن أهل بلده كانوا يَنْسُبُونه إلى الزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن، فكان لا يُظْهِر شيئًا مما يُصَنِّفُ[1]».

وسيرةُ أبي بكر بن زُهْر لابن أبي أُصَيْبعة مملوءةٌ بمثْلِ هذه الحوادث[2]، ومن ذلك قولُ ابن أبي أُصيبعة: «وكان المنصور قد قَصَد ألَّا يَتْرُكَ شيئًا من كتب المنطق والحكمة باقيًا في بلاده، وأباد كثيرًا منها بإحراقها بالنار، وشَدَّد في ألَّا يَبْقَى أحدٌ يشتغل بشيءٍ منها، وأنه متى وُجِدَ أحدٌ يَنْظُر في هذا العلم أو وُجِدَ عنده شيءٌ من الكتب المُصَنَّفَة فيه فإنه يَلْحَقُه ضررٌ عظيمٌ، ولما شَرَع في ذلك جعل أمرَه مفوَّضًا إلى الحفيد أبي بكر بن زُهْر، وأنه الذي يَنْظُر فيه، وأراد الخليفةُ أنه إن كان عند ابنِ زُهْرٍ شيءٌ من كتب المنطق والحكمة لم يَظْهَرْ ولا يقال عنه إنه يشتغلُ بها ولا يناله مكروهٌ بسببها، ونَظَرَ ابنُ زُهْرٍ في ذلك، وامتثل أمرَ المنصور في جَمْع الكتب من عند الكُتُبِيِّين وغيرِهم وألَّا يَبْقَى شيءٌ منها وإهانةِ المشتغلين بها»، ولم تَحُلْ هذه المُهِمَّةُ، الشاقَّةُ على فيلسوفٍ كابن زُهْر، والتي قام بها ابنُ زُهْرٍ مُنْقَادًا، دون الوشاية به لدى الخليفة عاكفًا على دراسة الكتب الْمَحْظُورة، وكان الاضطهادُ يؤتي ثمرتَه المعتادة من الرِّثاء وانحطاط الضمائر، وقال ابن أبي أُصَيْبِعَة: «كان الحفيد أبو بكر بن زُهْر قد أتَى إليه من الطَّلَبَةِ اثنان لَيشْتَغلا عليه بصناعة الطبِّ فتردَّدا إليه ولازَماه مُدَّةً وقَرآ عليه شيئًا من كتب الطِّبِّ، ثم إنهما أَتَياه يومًا وبيد أحدهما كتابٌ صغير في المنطق، وكان يَحْضُر معهما أبو الحسين المعروفُ بالمصدوم، وكان غرضُهم أن يشتغلوا فيه، فلما نَظَر ابنُ زُهْرٍ إلى ذلك الكتاب قال: ما هذا؟ ثم أخذه يَنْظُر فيه، فلما وجده في علم المنطق رَمَى به ناحيةً، ثم نَهَضَ إليهم حافيًا لَيَضْرِبَهم، وانهزموا قُدَّامَه، وتَبِعَهم يَعْدُو على حالته تلك وهو يبالغ في شتمهم، وهم يتعادَوْن قُدَّامَه إلى أن رَجَع عنهم عن مسافة بعيدة، فبَقُوا منقطعين عنه أيامًا لا يَجْسُرون أن يأتُوا إليه، ثم إنهم تَوَسَّلوا إلى أن حَضَرُوا عنده واعتذروا بأن ذلك الكتاب لم يَكُنْ لهم، ولا لهم فيه غَرَضٌ أصلًا، وأنهم إنما رأَوْه مع حَدَثٍ في الطريق وهم قاصدون إليه، فَهَزِءُوا بصاحبه، وعَبِثُوا به، وأخذوا منه الكتابَ قهرًا، وبَقِيَ معهم، ودخلوا إليه وهم ساهون عنه، فتخادع لهم، وقَبِلَ معذرتهم، واستمرُّوا في قراءتهم عليه صِناعة الطبِّ، ولَمَّا كان بعدُ

(1) المقري، جزء2، ص125 - 126 (طبعة دوزي، إلخ) غاينغوس، جزء1، ص 198، 199.
(2) مخطوط المكتبة الإمبراطورية، ص 199، غاينغوس، جزء1، ذيل، ص 10.

مُدَيْدَةٍ أمرهم أن يُجيدوا حفظَ القرآن وأن يشتغلوا بقراءة التفسير والحديث والفقه، وأن يواظبوا على مراعاة الأمور الشرعية والاقتداء بها، وألا يُخِلُّوا بشيء من ذلك، فلما امتثلوا أمرَه، وأَتْقَنُوا معرفةَ ما أشار به عليهم، وصارت لهم مراعاةُ الأمور سَجِيَّةً وعادةً قد أَلِفُوها، كانوا يومًا عنده، وإذا به قد أَخرج لهم الكتاب الذي كان رآه معهم في المنطق، وقال لهم: «الآن صَلَحْتُم لأن تقرءوا هذا الكتابَ وأمثالَه عليَّ»، وأَشْغَلهم فيه، فَتَعَجَّبوا من فِعْلِه رَحِمَه الله، وهذا يدلُّ على كمال عقله وتَوَفُّر مُرُوءته».

والذي تُهِمُّ ملاحظتُه، والذي يُمْكِنُ أن يَظْهَرَ مُحَيِّرًا أولَ وهلةٍ، هو أن هذه الاضطهاداتِ كانت مُسْتَحَبَّة لدى العامة كثيرًا، وأن أكثرَ الأمراء ثَقَافَة كانوا يَدَّعُونها تُنْزَع منهم، على الرغم من ميولهم الشخصية، نَيْلًا للحُظْوَة لدى العامة، وكان مقتُ العامة للفلسفة الطبيعية من أبرز ما تتصف به إسبانيا الإسلامية، ومن الصعوبة بمكانٍ ألا يُعَدَّ هذا من نتائج نفوذ العِرْق المغلوب، قال المَقَّرِيُّ[1]: «وكلُّ العلوم لها عند أهل الأندلس حَظٌّ واعتناءٌ إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حَظًّا عظيمًا عند خواصِّهم، ولا يُتَظَاهر بهما خَوْفَ العامَّة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت العامةُ عليه اسم زِنْدِيق، وقَيَّدَت عليه أنفاسَه، فإن زَلَّ في شُبهةٍ رَجمُوه بالحجارة أو حَرَّقوه قبل أن يَصِلَ أمرُه للسلطان أو يَقْتُله السلطان تَقَرُّبًا لقلوب العامة، وكَثيرًا ما يَأْمُر ملوكُهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجِدَت، وبذلك تَقَرَّبَ المنصورُ بن أبي عامر[2] لقلوبهم أوَّل نهوضه وإن كان غيرَ خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن»، وما مَلَأَ حياة المفكِّر الحرِّ ابن سبعين من كروبٍ «في النصف الأول من القرن الثالثَ عشرَ»، وما رُئِيَ من اضطراره، بلا انقطاعٍ، إلى رِثاءٍ يُورِث الغمَّ[3]، أمرٌ يثبتُ أن هذه التأملاتِ التي أتاها ذاك المؤرخُ الأندلسيُّ لا تنطوي على مبالغة.

4 - نصيب ابن رشد لدى أبناء دينه

الآن يُدْرَك السبب في أن ابن رشدٍ، الذي كانت له سلسلةٌ طويلةٌ من التلاميذ لدى اليهود والنصارى مدةَ أربعة قرون، والذي بَرَزَ اسمُه عِدَّةَ مراتٍ في معركة الذهن الإنسانيّ، لم

(1) جزء1، ص 136 (طبعة دوزي ورايت إلخ)، غاينغوس، جزء1، ص141.

(2) ليس هذا يعقوب المنصور المعاصر لابن رشد، بل الحاجب المنصور الذي توفى سنة 1002 والذي اغتصب السلطان من هشام الثاني، انظر إلى الصفحة 26 السابقة.

(3) أماري: المجلة الآسيوية، فبراير - مارس 1853.

يُؤسِّس له مدرسةً عند مواطنيه، وأنه، وهو أشهرُ العرب في نظر اللاتين، قد جُهِلَ من قِبَل أبناء دينه تمامًا، وإذا ما نُظِرَ إلى الاقتباسات التي فازت بها القرون الوسطى من المسلمين نظرًا عامًّا وُجِدَ أن هذه الاقتباسات لا تستطيع مَنْحَ أية فكرةٍ عما لأقسام الأدب العربيِّ من أهمية نسبية، وذلك أن الفلاسفة، الذين هم كلُّ من عُرِف من قِبَلَ اللاتين تقريبًا، لا يؤلِّفُون غيرَ أسرة طفيفة في مجموع هذا الأدب، ولا تَرَى لابن باجَّة وابن طفيل وابن رشد أيَّ صيت في الإسلام، ولم يُسْفِرْ ذاك التقدمُ العظيم عن غير شهرةٍ شعبيةٍ واحدة، أي شهرة ابن سينا، وانْظُرْ إلى مجموعة التراجم العربية تَجِدْ أن كتاب الفهرست وكشفَ الظنون لحاجي خليفة لم يَذْكُرَا غيرَ القليل جِدًّا عن كتب الفلاسفة حَصْرًا، وأن اسمَ ابن رشدٍ نفسَه لم يَرِدْ في حاجي خليفة إلَّا عَرَضًا، أي بمناسبة كتاب الغزاليّ الذي رَدَّ عليه وقصيدةِ ابن سينا التي شَرَحَها[1]، وأن ابن خلِّكان والصفديَّ[2] لم يقولا عنه كلمةً واحدة فيما ألَّفَا عن أعاظم الرجال في الإسلام، وأن جمال الدين القِفْطِيّ، الذي جاء بعده بجيلٍ واحد 1172 - 1248، لم يَذْكُرْه في كتاب أخبار الحكماء، وأن اليافعيَّ والْحَوْليين اكْتَفَوْا، حين ذكروا وفاتَه سنة 595، بقولهمْ مع الإبهام: إنه أَلَّفَ كتبًا كثيرة، ولكن مع ملاحظتنا أن اسم الشرح الأكبر لم يَصِلْ إليهم، وأن معاصريه ومواطنيه أنفسَهم لا يكادون يَعْرفون وجودَه[3]، فلم يَعْدُ جميعُ ما ذَكَرَ ابنُ الأبَّار من تآليفِ ابن رشد نطاقَ الفقه والطبّ والنحو، ويشتمل مخطوطٌ لدينا، رَقْمُه 525 (ملحق، باب)[4]، على فهرسٍ للكتب المحظورة، فلا يُشَارُ فيه إلى غير عباراتٍ قليلة من مؤلَّفٍ له في القانون الدينيّ، وكذلك لا يُسْنِدُ إليه محمد بن علي الشاطبيّ غيرَ مؤلَّفٍ واحد، وهذا المؤلَّفَ هو في الفقه[5].

ولا يعني هذا أن ابن رشدٍ لم يتمتع بشهرة كبيرة بين معاصريه، فقد عَقَدَ له ابنُ الأبَّار أفخمَ أكاليل الثناء، ومن ذلك أنه، بعد أن قَصَّ من الأحاديث ما أدى إليه عِلْمُه البالغُ، قال: إن هذه الأقاصيص أقلُّ من الحقيقة، ويُلَقِّبُه ابن سعيد بإمام الفلسفة في عصره[6]، ويَضَعُه ابن

(1) راجع حاجي خليفة، كشف الظنون، (طبعة فلوغل)، كلمتا تهافت وأرجوزة.

(2) لا يشتمل مجلد الصفدي الموجود في المكتبة الإمبراطورية على القسم الذي يظن وجود ترجمة فيه لابن رشد وفق الترتيب الأبجدي، بيد أنه يوجد مجلد عن هذا الكتاب عند مسيو شيفر يجب أن تكون الترجمة المذكورة فيه إذا لم يكن المؤلف قد أهملها.

(3) يفند ابن خلدون (المقدمة، 1، ص 244، 45، طبعة كاترمتر) عبارة من كتاب الخطابة لابن رشد جاعلًا لها قسمًا من الشرح الأوسط في المنطق.

(4) ص 39: 5.

(5) أساس عربي قديم، رقم 814، ص 184.

(6) المقري، جزء2، ص 125 (طبعة دوزي)، غاينغوس، جزء1، ص 198.

أبي أُصَيْبِعة في تَرْجَمته لابن باجَّة في الطبقة الأولى من تلاميذ هذا الأستاذ الكبير، ويُطْلِق عليه القاضي أبو مروان الباجِّيّ، الذي استشهد به هذا المترجمُ للرجال، أعزَّ الصفات، ويُورِد الأنصاريُّ من الشواهد ما يَدُلُّ على بلوغ شهرةِ ابن رشدٍ أقصى حدود الإسلام، ويُثْنِي المؤرخ اليافعيُّ[1] على ألْمَعِيَّته وعُكُوفِه الدائم على الدرس وعلمه الشامل في الفقه والكلام والطبِّ والفلسفة والمنطق وما بعد الطبيعة والرياضيات، ويَبْرُز ابنُ رشد كريمَ المَقَام بين أعاظم الرجال الذين ذكرهم محامي الأندلس المَقَّرِي لإثبات أفضلية هذا البلد[2]، وذلك في أثناء مناظرةٍ مُمْتِعة دَارت حَوْل تَفَوُّق أيِّ البلدين على الآخر: الأندلس أو إفريقيا، ويَذِيع صيتُه في المشرق، ويقرأ ابنُ ميمون كتبَه في مصر سنة 1190[3]، وقد رأينا أن ابن حَمَوَيْه لم يَجِدْ حافزًا في نفسه، عند وصوله إلى المغرب، أكثرَ من السؤال عن ابن رشد[4]، بَيْدَ أن مقاييس الشهرة والنفوذ في أدوار الانحطاط تختلف اختلافًا كليًّا عما كانت عليه، ولذا فإنك لا تَجِدُ بين تلاميذ ابن رشد الذين عَرَفْنَا أسماءهم، أي أبي محمد بن حَوْط الله وأبي الحسن سَهْل ابن مالك وأبي الربيع بن سالم وأبي بكر بن جَهْورَ وأبي القاسم بن الطَّيْلَسان وبُنْدُودَ[5]، أو ابنِ بُنْدُودَ[6]، واحدًا نال شيئًا من الشهرة، ولذا فإنه لم يَتَّفِقْ لنظرياته مَنْ يواصلها، ولم تجد مؤلفاتُه نفسُها غير قُرَّاءٍ قليلين بعد وفاته، ولم يُرَ أن القليلَ التصديقِ والقائلَ بوَحدة الوجود، ابنَ سبعين[7] (المولودَ سنة 1217)، اقتبس من ابن رشدٍ شيئًا مباشرةً، وكان ابن سبعين، إذا ما تناول عينَ المسائل التي عالجها ابنُ رشد، لم يَذْكُر ابن رشدٍ قط. وليس لدينا غيرُ تفصيل قليل حَوْلَ تدريس ابن رشد، ويَكْفِي شكلُ كثير من مؤلفاته لإثبات صلاحها للعَرْض الشفويِّ، ومع ذلك فإن ابن الأبَّار يدلنا بصراحةٍ على أنه كان يُلْقِي محاضراتٍ أو يَعْقِدُ مجالسَ حُرَّةً[8] وَفْقَ عادة المسلمين، ولا رَيْبَ في أن هذه المجالس كانت تُعْتَقَد في مسجدٍ كان يَخْتَارُه، وقد كان جَدُّه أستاذًا ثَبَتًا[9] حتى سِنِيه الأخيرة.

ويَرْوِي ليونُ الإفريقيُّ أن فخر الدين ابن الخطيب الرازيّ الشهير سَمِعَ في القاهرة أحاديث

(1) سنة 595، مخطوط، المكتبة الإمبراطورية، أساس قديم، رقم 644، ص 141، ملحق، باب 723.
(2) المقري، جزء2، ص 130 (طبعة دوزي، إلخ)، غاينغوس، جزء1، ص37.
(3) لم يذكر اسم ابن رشد من قبل عبد اللطيف الذي زار مصر سنة 1197، والذي قص خبر جميع مجادلاته مع علماء مصر حول الفلاسفة الرائجين في ذلك الزمن، (عبد اللطيف: الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار، ص 466، ترجمة دو ساسي).
(4) انظر إلى الذيل 4.
(5) يظهر لي أن هذا الاسم يهودي، قارن بنغوداس وبنغوا.
(6) انظر إلى ابن الأبار (ذيل 1)، عبد الواحد، ص 174، (طبعة دوزي).
(7) أماري، في المجلة الآسيوية، فبراير - مارس 1853.
(8) انظر إلى الذيل 1.
(9) دوزي، المباحث، (الطبعة الثانية)، ص 359، 360.

عن شهرة ابن رشد فاستأجر سفينةً في الإسكندرية ليزورَه في الأندلس، ولكنه عَدَل عن رحلته حينما عَلِمَ خبرَ النكبة التي جلبها إليه انحرافه عن الدين، والواقعُ أن الرازيَّ هذا أُصيب بمثل هذه المَكَاره في بَغداد بسبب آرائه الفلسفية، غير أن ترجَمَةَ ليونَ لابن الخطيب هذا زاخرةٌ بالمتناقضات الغليظة التي تَحْمِل على عدم الثقة بهذه القصة، ومن ذلك أن ليون جَعَلَ، بعد ذلك ببضعة أسطر، حدوثَ وفاة الرازيِّ هذا بعد وفاة ابن رشد بـ174 سنة! مهما يَكُنْ من أمرٍ فإن فخر الدين كان، كما يَظْهَرُ، من أتباع هذه الفلسفة الحرة التي أطلق اللاتينُ عليها اسمَ الرُّشْدِية بعد حين، وإنه شَرَحَ أرسطو وابنَ سينا، وَوُجِدَتْ في بيته، بعد وفاته، أشعارٌ يَتَغَنَّى فيها بقِدَم العالَم وتلاشِي الفرد، فلما عَلِمَت العامَّة هذا نَبَشَتْ رُفاتَه وانتهكت حرمةَ هذا الرُّفَات[1].

ولذَا يَجِبُ أَلَّا يُبْحَثَ عن الرُّشْدية لدى المسلمين[2]، وذلك لأنه لم يَكُنْ لابن رشدٍ في نظر المسلمين، من ناحيةٍ، ذلك الإبداعُ الذي له في نظر السُّكُلاسيين الذين كانوا يَعُدُّونه منعزلًا عمن تَقَدَّمه، ولأن الفلسفة بعده فَقَدتَ حُظْوَتها تمامًا[3] وتَجِدُ عَقِبَ ابنِ رشدٍ الحقيقيَّ وداومَ الفلسفة العربية المباشر لدى اليهود في مدرسة موسى بن ميمون، والواقعُ أن مذهب ابن ميمون هذا حُكِمَ عليه بشِدَّة من قِبَل المسلمين، ومن ذلك أن المقريزيّ السُّنِّيَّ قال عن موسى بن ميمون إنه يَجْعَلُ من أبناء دينه مُعَطِّلين، وإنه لا يُوجَدُ ما هو أكثرُ من مذهبه ابتعادًا عن الأديان السماوية التي أُنْزِلَتْ على الأنبياءُ المرسلين[4]، والمُعَطِّلُ اسم فاعلٍ لفِعْل عَطَّل الذي يَعْنِي نَزْع حَلْي المرأة أو تفريغَ الشيء وإخلاءه، ويَعْني المُعَطِّل مَنْ يُجَرِّد الله من صفاته ويَجْعَلُ الفَراغَ فيه، ويُصَرِّح بأن العقل لا يَصِلُ إليه وأنه غريبٌ عن حُكْم الكَوْن[5]، وهذا هو الشكلُ الذي تُجَاوِرُ به المشائيةُ وَحْدَةَ الوجود، وهذا هو المذهب الذي قُرِن به اسمُ ابنِ رشد فيما بعد.

---

(1) ليون الإفريقي apud Fabr, Bibl, gr، جزء 13، ص 289، وما بعدها.

(2) لا نعلم هل قرنت مؤلفات ابن رشد بالمجادلات التي وقعت حول كتاب التهافت للغزالي في الأزمنة الأولى من السلطة التركية (حاجي خليفة2، ص 474 وما بعدها، طبعة فلوغل)، ويزعم بول جوف أن بايزيد كان مولعًا بآراء ابن رشد: Peripatetìci Averrls (1، 4 oblectabtur) opinionibus Elogia virorum bellica virt. illustr، ص 344)، وقد أتاه هذا الاعتقاد أول وهلة من وجوب تمتع الفيلسوف العربي لدى أبناء دينه بمثل ما كان يتمتع به في إيطاليا من شهرة.

(3) لم يقل ابن بطوطة كلمة عن الفلسفة مع أنه طاف في العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وأحصى بكل دقة جميع الأساتذة الذين سمعهم والدروس التي تتبعها، وعاد ما بعد الطبيعة، الذي دار البحث حوله في الجزء 1 والصفحة 91 (طبعة ديفريميري وسنغينتي)، لا يكون ما بعد الطبيعة المشائي القديم، وهو قد أشير إليه باسم جديد على الأقل.

(4) دو ساسي، مقتطفات عربية، جزء 1، ص 299، 300. (5) المصدر نفسه، ص 325، والجزء الثاني، ص 96.

5 - ما ضَخُمَتْ به سيرةُ ابن رشد من الأقاصيص

يكاد عَدَدُ الأقاصيص، التي تُكدِّس حَوْل أعيان التاريخ، يَكُون بنسبة شهرتهم، ويَعُود كلُّ رجلٍ يَغْدُو اسمُه عُنْوَانَ مذهبٍ، حقًّا كان هذا أو باطلًا، غيرَ وليٍّ لنفسه، وتدلُّ سيرته إلى مختلف أحداثِ المذهب الذي قُرِن به أكثرَ من دلالتها إلى شخصيته الخاصة، وقد أَدَّى ابن رشد دَيْنَ شهرته. فمن النادر أن تَجِدَ سِيرًا ضُخِّمَتْ بأقاصيصَ كما ضُخِّمَتْ سيرتُه، ويُمْكِنُ ردُّ هذه الأقاصيص إلى ثلاث أصناف، وذلك أن بعضها صدر عن مؤلفي التراجم من العرب، وأن بعضًا آخر منها من أصلٍ نصرانيّ اخْتُلِقَ لإثبات دَوْر الإلحاد الذي جَعَلَت القرونُ الوسطى ابنَ رشدٍ يُمَثِّلُه، وأن بعضَها الثالث، وهو بضعُ حكاياتٍ، وجب أن يُعْزَى كما يَظْهَر، إلى ما يَتَمَتَّعُ به ابنُ رشدٍ من شهرةٍ عظيمة في شمالِ إيطالية أيام عصر النهضة، وإلى هذه العبقرية المُبْدِعة التي ما انْفَكَّتْ تَجْعَلُ المذاهبَ خصيبةً بالأحاديث حَوْل مشاهير المعلِّمين.

كان مُعْظَم الأوصاف التي رواها ابنُ أبي أُصيبِعة والأنصاريُّ وليونُ الإفْريقيُّ يَهْدِف إلى الإشادة بفضائل ابن رشد وصبرِه وسهولةِ صِفْحِه عن الإهانات وبكرمه نحو رجال الأدب على الخصوص، ولا شيءَ في هذه الأخبار غيرِ المؤذية ما يشابه أُحْدُوثَةَ القرون الوسطى النصرانية، وما كان لِيَخْطُرَ بالبال، مطلقًا، أن يُحَوِّلَ القاضي الجليل، الذي يَظْهَرُ فيها مثالَ الكمال، إلى عدوِّ المسيح وإلى ملحدٍ أُصُوليّ يَصْفَع الأديانَ الثلاثةَ المعروفة مع الازدراء ويُجَدِّف على سِرِّ القربان المقدَّس ويقول بصوتٍ عالٍ: «لِتَمُتْ نفسي مَوْتَةَ الفلاسفة!»، وسَوْفَ نتناول بالنقد هذه الأقاصيصَ الأخيرة ونَتَقَصَّى أصلَها حينما نَدْرُس شأنَ ابن رشدٍ مُمَثِّلًا للإلحاد الدينيِّ في القرن الثالثَ عشر. ولا رَيْبَ في أن أكثرَ الأقاصيص التي نشأت عن شهرة ابن رشد الفلسفية والطبية مخالَفةً للصواب هي التي أَسْفَرَ عنها تظاهُره بمخالفة ابن سينا، وهذا مَيْلٌ كان رُوجِر بِيكُن[1] قد لاحظه، وقد قَرَّر بِنْفِنُوتُو دِيمُولَا ذاتَ الأحاديث[2]، وهو يَزْعُم أن هذا كان عن معارضةٍ لابن سينا القائل بوجوب احترام الإنسان للدين الذي يُولَدُ عليه، وذلك بابتداع ابن رشدٍ لمذهبه مستخفًّا بالأديان القائمة، ويُؤَكِّدُ سِنْفُورْيَن شَانِييه[3]، وقد أُكْثِرَ بعدَه تكرارُ ما

(1) الكتاب الأكبر، ص13 (طبعة جب).

(2) Ad inf, cnt 4: 5، 143 (مخطوط، المكتبة الإمبراطورية، رقم 4146، ملحق فرنسي، ص 25).

(3) De claris medici apud Gesneri Bibl، ص 100، بيل، مادة ابن رشد، تعليق آ.

وَكَّدَ، أن ابنَ رُشْد يَمْتَنِع عن ذكْرِ مُنافِسه، ولا شيءَ أكثرُ خطأً من هذا لا رَيْبَ، أجَلْ، فُنِّدَ ابنُ سينا كثيرًا في الشرح الأكبر، ولاسيما في «تهافت التهافت»، ولكن بَعُدَ ابنُ رشدٍ من معاداته بانتظام في الطِّبِّ، وتَرَى أن أحدَ مؤلَّفاتِه الطبية المهمة هو شرحٌ لأُرجوزة ابن سينا التعليمية التي تَوَّجها بأعظم مَدْحٍ، ومع ذلك كلِّه فإن الخيال لم يَقِفْ عند هذا الطريق الجميل، فقد حُكِيَ أن ابن سينا جاء قرطبةَ أيامَ ابن رشد «وهذا خطأٌ في التاريخ بمقدار قرنٍ ونصفِ قرنٍ»، فسامه هذا الأخيرُ سوءَ العذاب إرواءً لحقده، وأوجب هلاكَه تحت الدولاب[1]، ومن الواضح أننا نُبْصِرُ هنا انعكاسَ ما كان يسود علماءَ عصر النهضة من أحقادٍ فظيعةٍ إلى الغاية، والواقعُ أنه ما كان ليُمْكِنَ هذا الدَّوْرَ أن يتصورَ وجودَ رئيسَيْ مذهبٍ من غير أن يَفْتَرِضَ تَعَادِيَهما، فقُصَّ ألفُ خبرٍ عن تضاغن أرسطو وأفلاطون، وبَرْتُولَ وبَلْدُوس، وظُنَّ، طَوْعًا، أن ابنَ رشدٍ عامَلَ مُنافِسَه كما كان يعامَل لو كان منافسُه في مكانه.

وقد اعتقد أطباءُ عصر النهضة، على العموم، أن ابن رشدٍ لم يُزاوِل الطبَّ عمليًّا قَطُّ[2]، مع أنه يُعْتَرَفُ بأنه كان طبيبًا للملك مِيمارُولِين، وأنه يُعْزَى إليه اكتشافٌ مهمٌّ، أي إن من الممكن تعاطيَ الفَصْدِ بلا خَطَرٍ في الأولاد[3]، وقد بَيَّن فرايْندُ أن هذا الرأيَ صدرَ عن خطأٍ في عبارةٍ عزا ابنُ رشد فيها هذه التجرِبَةَ إلى ابن زُهْر[4]، ويُعَدُّ هذا أيضًا تأويلًا كاذبًا لعبارةٍ وردت في «الكليات» فأدت إلى الرأي الغريبِ الذي كُرِّر كثيرًا والقائلِ إن من عادة ابن رشدٍ ألَّا يَصِفَ علاجًا لمرْضاه[5]، بَيْدَ أن أدعي الأغاليط، التي كان ابنُ رشدٍ هدفًا لها، إلى السُّخْرية هو أن نقرأ في الباتِنْيانَا كَوْنَ «ابن رشدٍ قد قُتِل بدُولَابِ عَرَبةٍ سَحَقه في الطريق مع الأسف»[6]، وأن نقرأ في دُوفِرْدِيه الذي ذكره بِيلُ كَوْنَ «ابنِ رشدٍ قد حُطِّم بدُولَابٍ وُضِعَ على مَعِدَته»[7]، ومن المحتمل أن تكون هذه الأُسطورة قد أتت من التباسٍ بينها وبين أسطورةٍ أخرى، أي الأسطورة القائلة إنه سام ابنَ سينا سوءَ العذاب، أو أن تكون قد أتت من الإشارة إلى إلزام اليهود بوضع دولابٍ من نسيج أصفرَ على ثيابهم، «وقد عُدَّ ابنُ رشدٍ إسرائيليًّا ذاتَ حين كما هو معلوم».

---

(1) فوسيوس، De Philos, sectis، فصل 14، ص 113، بروكر، تاريخ النقد الفلسفي، جزء 3، ص 108.

(2) راجع بروكر، جزء3، ص99.

(3) إتيان باسكيه (الرسائل، جزء1، 2، 19، ص 548): «ما أكثر القرون التي زاولنا فيها الطلب قائلين بعدم جواز فصد الولد قبل بلوغه الرابعة عشرة من سنيه، وأن فصد الأولاد قبل هذه السن ينطوي على موتهم، لا على علاج لهم! وقد كنا نستمر على هذا الضلال حتى أيامنا لولا ابن رشد العربي الذي كان أول من خاطر فجرب الفصد في ابن له يترجح عمره بين السادس والسابع، فشفاه من ذات الجنب».

(4) تاريخ الطب، جزء2، ص 256.

(5) بيل، تعليق د، بروكر، جزء3، 108.

(6) ص 97، (طبعة 1701).

(7) لم أستطع أن أجد هذا النبأ في مكتبة دوفرديه.

6 - معارفُ ابن رشد ومصادرُها

لابُدَّ من التسليم، إذَنْ، بأن نَعْلَم شيئًا قليلًا عن خُلُق ابن رشدٍ الفرديّ، ويكاد يَكُون كلُّ ما يقال عنه من الأقاصيص، ويَكُون مَا فَعَلَ أقلَّ كثيرًا من الفكر الذي كُوِّن حَوْلَ موضوعه وتُثْبِتُ مجموعةُ كتبه أن قدرتَه على العمل وَجَبَ أن تكون عظيمةً ولو لم نَعْلَم من ابن الأبَّار أنه استعمل لتأليف كتبه عشرةَ آلاف ورقة، ولو وَجَدْنا من المبالغة ذاك الزَّعَم القائلَ إنه لم يَقْضِ غيرَ ليلتين بلا دراسة منذ شَبَابه الأول، ليلةِ وفاةِ أبيه وليلةِ بنائه على أهله[1]، ولا يُمْكِن أن يقال إن ابن رشدٍ يَخْرُج بدِراساته عن مثال علماء المسلمين الشائع، فهو يَعْرِف ما يَعْرِف الآخرون: يَعْرِف الطبَّ، أيْ جالينوسَ، والفلسفةَ، أي أرسطو، وعلمَ الفلك، أي المجسطيّ، وإنما يُضِيف إلى ذلك درجةً من النقد النادر في الإسلام، ويُوجد بين ملاحظاته ما يَفوق أُفُقَ عصره بمراحل[2]، وهو يُضِيفُ الفقه إلى دراساته الدنيوية ككلِّ مسلمٍ صالح، فيَحْفَظُ الموطأَ على ظَهْرِ القلب[3] كما يُضِيفُ الشِّعْرَ ككلِّ عربيٍّ نجيب، ولم يَكُنِ الشعرُ لدى العرب في ذلك العصر غيرَ تأليفٍ مُحْكَمٍ بين المقاطع، ولِذَا فلا عَجَبَ إذا ما رأينا انتحالَهَ من قِبَل أَلبَّاءَ قليلي الغنائية كابن سينا وابن رشد، ونَعْلَم من ليونَ الإفريقيِّ أن ابن رشد كان قد نَظَمَ عِدَّة قصائد خُلُقية وغَزَلية فأَحْرَقها في مَشِيبه[4]، ويَنْقُل ليون إلينا قطعةً منها تَجْعَلُنا نَفْتَرِض، بالحقيقة، كَوْن الحكمة، من بعض النواحي، لم تأتِ ابنَ رشدٍ إلا مع السنين، ويَزْعُم ابن الأبَّار أن ابنَ رشدٍ كان يَحْفَظُ ديوانَ المتنبي وديوانَ حبيب ويُكْثِرُ من إيرادهما في أثناء دروسه[5]، والواقعُ أن تلخيصه فنَّ الشعر لأرسطو يَشْهَدُ بعُلُوِّ كعبه في الأدب العربيّ، ولاسيما شعرُ ما قَبْل الإسلام، وتَجِدُ في كلِّ صفحةٍ من هذا الكتاب[6] استشهادًا بعنترةَ وامرئِ القَيْس والأعشى وأبي تمام والنابغةِ والمتنبي وكتابِ الأغاني «الذي هو مجموعةٌ من أغاني العرب القديمة»، ويَنِمُّ هذا التلخيص، من جهةٍ أخرى، على جهلٍ تامٍّ بالأدب اليونانيّ، وهذا ما كان يَجِبُ انتظارُه، وذلك

(1) انظر إلى الذيل 1، 4.

(2) انظر، مثلًا، إلى الملاحظة الممتازة النفاذة حول فلك بطليموس، التي تنطوي على بذرة تقدم واسع المدى (ما بعد الطبيعة، 1، 8، فصل 8، معارضة جزء 8، ص 154: 5).

(3) ابن الأبار، (الذيل 1).

(4) apud Fabricium، المكتبة اليونانية، جزء 8، ص 287.

(5) الذيل1، راجع منك، مقالات، ص419، تعليق.

(6) وهكذا تجده يستشهد في الصفحة 54 (طبعة 1481) بالأبيات التي أنشدها الشاعر الأعشى في سوق عكاظ تكريمًا لمضيفه المحلق (انظر إلى كوسان دوبرسفال: رسالة في تاريخ العرب قبل الإسلام، جزء2، ص400).

أن العرب لم يَعْرِفوا من اليونان غيرَ الفلاسفة والعلماء، وأنه لم يَنْتَهِ إليهم أمرُ أديبٍ يونانيّ عبقريّ، ولا رَيْبَ في أنه كان لا يمكنهم تقديرُ بدائعَ تختلف عما كانوا يَنْشُدُون، وبيانُ ذلك أن المنطق والفلكَ والرياضياتِ، والطبَّ إلى حَدٍّ ما، أشياءُ خاصةٌ بجميع البلدان، وأن منطق أرسطو انْتُحِل من قِبَل مختلف العروق مِثْلَ دُستورٍ للعقل، وأن أوميرس وبِنْدَار وسُوفُوقل، حتى أفلاطونَ، كانوا يَبْدُون بلا طَلاوةٍ لدى الأمم الساميَّة الأصل، شأنُ الصينيين الذين تَبْدو التوراةُ لهم مِثْلَ كتابٍ غيرِ خُلُقيٍّ إلى الغاية، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فإن أغاليط ابن رشد في الأدب اليونانيّ تُثِيرُ الابتسامَ بطبيعتها، وهو، إذْ تَصَوَّرَ، مَثَلًا، أن المأساة ليست غير فنِّ الإطراء، وأن المَهْزَلة ليست غيرَ فن الإزْرَاء[1]، زَعَم أنه يَجِدُ المآسيَ والمهازلَ في مدائح العرب وأهاجيِّهم، حتى في القرآن[2]!

وما تناول به الناقدون والمؤرخون فلسفةَ العرب من خِفَّةٍ يُفَسِّرُ وحدَه أُغْلُوطةً فظيعةً كَثُرَ تكرارُها منذ دِرْ بِلُو، قال دِرْبلُو[3]: «إن ابن رشد هو أولُ من تَرْجَم أرسطو من اليونانية إلى العربية، وذلك قَبْلَ أن يُقُوم اليهودُ بترجَمتهم له، ولم يَكُنْ عندنا لطويلِ زمنٍ نَصٌّ آخرُ لأرسطو غيرُ الترجمة اللاتينية التي تَمَّتْ وَفْقَ الترجمة العربية التي قام بها هذا الفيلسوف العظيم فأضاف إليها، فيما بعد، شروحًا مُطَوْلة انتفع بها القديسُ توما والسُّكُلَاسيون الآخرون قَبْلَ أن نَعْرِف الأصلَ اليونانيّ لكتب أرسطو وشُرَّاحه»، أَجَلْ، كان يُمْكِنُ دِرْبِلُو أَلَّا يَعْرِف تاريخ ترجمات كتب أرسطو اللاتينية الذي لم يُدْرَس بعنايةٍ إلَّا منذ بضع سنين، ولكنه، وهو مستشرقٌ، كان لا ينبغي له أن يَجْهَل:

1 - أن أرسطو ترْجم إلى العربية قَبْلَ ابن رشد بثلاثة قرون.

2 - أن السِّرْيان هم الذين قاموا بجميع تَرْجَمات مؤلفي اليونان تقريبًا.

3 - أنك لا تَجِدُ عالِمًا مسلمًا على ما يحتمل، ولا عربيًّا أندلسيًّا لا رَيْب، كان يَعْرِف اليونانية، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فإن هذا الرأي القائل عَمْ، كما يَظْهَرُ، منذ الأزمنة الأولى من عصر

(1) اقتبست هذه النظرية الغريبة حرفيًا من ابن رشد في مقدمة شرح بنفنوتو ديمولا للكوميديا الإلهية.

(2) ليس الرثاء أقل إثارة للفضول من ذلك:

Species vero poetriae quae elegia nomiatur non est nisi incitatio ad actus cohituales, quos amoris nomine obtegunt et decorant. Ideoque oportet ut a talibus carminibus abstrahantur filii, instrauantur et exerceantur in carminibus quae ad actus fortitudinis et largitatis incitent.

قلتُ: وهذا القولُ محال أن يصدر عن ابن رشد، فإن قداسته للقرآن معلومة من خلال دراساته، فتنبه!

(3) المكتبة الشرقية، كلمة «رشد».

النهضة، فانظر إلى أُوغُسْتن نِيفُوس[1] وبِتْرِزِّي[2] ومَرْك أُدُّو، في مقدمة طبعة الْجونْت[3] سنة 1552، وجان بانْتِسْت برورين[4] وسِيغُونْيُو[5] وتومازيني[6] وغَسِّندِي[7] ولُنْغِيرو[8] ومُورِيري[9]، وجميعِ القرن السادسَ عشرَ والقرنِ السابع عشرَ، تَجِدْهم قد عَدُّوا ابنَ رشدٍ مُدْخِلًا لأرسطو إلى اللاتين، ولما انْتَحَلَ دِرْبِلُو هذا الخطأَ وأضاف إليه درجةً جديدةً من الإحكام استنسخه الغزيري[10] وبُول[11] وهَرْل[12] ورُوسِّي[13] ومدْلدُرْف[14] وتِنِّمان[15] وجِيرَنْدو[16] وأَمَا بِل وجُرْدَان[17] ودوهُنْبُلْد[18]، إلخ، وقد اقْتُرِف مثلُ هذا الخطأ في قائمة المخطوطات العبرية بالمكتبة الإمبراطورية[19]، فرَسَخ لطويل زمنٍ في جميع الأحاديث اللغوية، وهذا هو حال الإصرار على الخطأ في التاريخ الأدبيّ.

إذَنْ، لم يَقْرأ ابن رشدٍ كتبَ أرسطو في غير الترَجمات القديمة التي قام بها من السريانية حُنَيْن بن إسْحاق وإسْحَاقُ بن حُنَيْن ويحيى بن عدَيّ وأبو بشر مَتَّى، إلخ، وإنما كان يَعْرِف أن يَنْتَفع بجميع ما عنده من وسائل الشَّرْح، وكان يقابل بين مختلف التَرجمات العربية[20]، ويجادِل في معنى الدروس، ويقوم أحيانًا بملاحظاتٍ انتقادية تُفْتَرَض بها معرفةُ اللغة اليونانية[21] كما يَلُوح، بَيْدَ أن أغاليطه تكفي لإثبات كَوْنِ النصِّ الأصليِّ مُوصَدًا دُونَه، وقد أظهرها أحدُ أعدائه الأشداء، لويسِ فِيفِس[22]، بما يُثِيرُ الفُضُول، فهو يخْلِطُ بين فرُوتَاغُورَس وفيثاغورس، وبين قراطلس وديمقراطيس، ويتحوَّل هرقليطس إلى فرقةٍ فلسفية، أي فرقة

(1) In Librum de Subst. Orbis (البندقية 1508)، ص2 In Phyis Auscultationes Aristotelis (البندقية 1549)، Preaf.
(2) Discuss Peripat: 1 و12، ص 106 (البندقية 10571).
(3) جزء 1، ص 7.
(4) مقدمة الكليات، ص 81 (طبعة 1552).
(5) معارضة، جزء 2 ص 706 (ميلان 1732).
(6) Gymn Patav ص 4 (أوتيني 1654).
(7) Exercit parad adv Aristot (معارضة، جزء3، ص 1192).
(8) Longueruana ص 68 - 69.
(9) Dict crit, art, averrécs
(10) المكتبة العربية الإسبانية، جزء1، ص 185.
(11) Aristot Opp. Prologg، طبعة بيبون، ص 323، 346.
(12) Ap. Fabr Bibl, gr، جزء 3، ص 306، تعليق.
(13) Dizionario degli autori arabi، ص 157.
(14) De Instit. litt, in Hisp، ص 67 - 68.
(15) في موسوعة إرش وغوبر، مادة ابن رشد.
(16) تاريخ المذاهب الفلسفية المقارن، جزء4، ص 247 (طبعة 1822)، ويذهب مسيو دو جيراندو إلى أن ابن رشد قام بترجمته من السريانية.
(17) تراجم الرجال العامة، مادة ابن رشد.
(18) تاريخ جغرافية العالم الجديد، جزء1، ص 93، تعليق، وقد تسرب عين الخطأ في معجم العلوم الفلسفية، جزء3، ص 614، 615، وقد لخص مسيو منك بعض صفحاته تلخيصًا لبقًا (المصدر نفسه، صفحة 160).
(19) Catal, Codd Mss. Bibl, Regioe، جزء1، صحة 19، 30.
(20) ما بعد الطبيعة، 12، ص 323، كتاب النفس، 3، ص 175.
(21) In Proedicam، ص 23، كتاب النفس، 101، ص 114، و1، 2، ص 127، و130، و 159، و1، 3، ص -160، 195، الطبيعيات 101، ص 17، و 1، 2، ص 34، و1، 4، ص 61، Expos, media in Phys، ص 200، 203، تهافت التهافت ص 217.
(22) علل الفساد، مادة 1، معارضة، جزء1، ص 141 (بال 1555).

الهِرَقْليين! ويكون سقراطُ فيلسوفَ فرقة الهِرَقليين الأولَ، كما جُعِلَ أنكساغورس رئيسَ المدرسة الإيطالية[1]. والواقعُ أن هذه الأغاليط تَنِمُّ على أغلظِ جهلٍ لو لم يُفَكَّرْ في أنها، على الأكثر، من عمل الترجَمات التي كانت بين يدي ابن رشد، وفي أنه كان يُعْوِزُ العربَ أبسطُ المعارفَ في مجموع الآداب اليونانية وتاريخها[2].

وأما جفاءُ أسلوب ابن رشدٍ فهل يُحَارُ منه إذَا ما فُكِّرَ في أن طَبَعاتِ كتبه لا تَعْرِض غيرَ ترجَمةٍ لاتينية من ترجَمةٍ عبرية لشَرْحٍ قام على ترجَمةٍ عربية من ترجمة سريانية من أصلٍ يونانيّ، إذا ما فُكِّرَ، على الخصوص، في اختلافِ العبقرية البالغِ بين اللغات الساميَّة واللغة اليونانية، وفيما تنطوي عليه العبارة التي يُرَادُ جَلَاؤها؟ وكيف لا يَتَبَخَّرُ الفكر الأصليّ في هذا النقل المُكَرَّرَ؟ وإذا كانت جميعُ مساعدات علم اللغات الحديث، وجميعُ أفضل الأذهان النَّفَّاذة لا يكفي لرفع الحُجُب التي تَسْتُر فكرَ أرسطو فكيف يستطيع ابن رشد، الذي لم يكن بين يديه غيرُ ترجَماتٍ مبهمةٍ غالبًا، أن يكون أوفرَ حظًّا؟ لقد جُرِّب، تقريبًا، أن يُشْكَرَ له عدمُ إتيانه كثيرَ مناقضات للمعنى الحقيقيّ، وأن يُقالَ مع إسحاق فُوسُيوس: «من حسن حَظكَ أن تَنْفُذَ في نفس أرسطو مع جهلك اليونانية، وماذا كنت تَفْعَل لو كنت تَعْرِف اليونانية[3]».

وإذا عدوتَ أرسطو وجدتَ، بين شُرَّاح اليونان، أن اسمَ الإسكندرِ الأفروديسيِّ وثامسطيوسَ ونِقُولاوسَ الدمشقيِّ أكثرُ ما يَجْرِي على قلم ابن رشد[4]، ويُعَدُّ ابنُ سينا وابن باجَّة أكثر من يَذْكُرُ ابنُ رشدٍ بين العرب، ولا يُورِدُ ابنُ رشدٍ آراءَ ابن سينا والإسكندر عادةً إلا ليدحَضها، مُغْرِضًا علانيةً أحيانًا[5]، وعلى العكس تَرَى ابنَ رشدٍ يتناول ابنَ باجَّة باحترام بالغ دائمًا، وإذا حَدَثَ أن أباح ابنُ رشدٍ لنفسه، في بعض الأحيان، ألَّا يقاسِمَ أبا الفلسفة العربية الأندلسية[6] هذا رأيَه لم يَقَعْ هذا إلّا مُعْجَبًا به، ويَشْغَلُ الجَدَلُ، على العموم، مكانًا كبيرًا جدًّا في مؤلَّفات ابن

(1) ما بعد الطبيعة 1، ص 22، اقترف المترجم العربي مثل هذا الخطأ في محاورة سيبس، وذلك أن سيبس يهتف في الفينة بعد الفينة مع الإعجاب: يا هرقلس! وظن المترجم أن هذا هو اسم المحاور، وقد أضاف إلى آخر الكتاب: Explicit expositio Herculis Socratici ad Cebetem Platonicem, etc.

(2) ومع ذلك فإن مما يجدر ذكره وجود معارف على شيء من الصحة لدى ابن رشد عن الزمن الذي عاش فيه أرسطو، فقد كان يعلم أن أرسطو ألف قبلة بـ1500 سنة، انظر إلى شتاينشنايدر Catal, Codd, hebr, Acad, Ludg, Bat، ص 65، والصفحة 71 الآتية.

(3) De Philos sectis، فصل 18، ص 90.

(4) لا ريب في أن من خطأ الناسخ أو المترجم أن يقرأ اسم شيشرون في شرح الكتاب الثامن من الطبيعيات (ص 177، طبعة 1552) واسم سنيكا في ترجمة فن الشرع من قبل هرمن الألماني.

(5) الطبيعيات، 8، ص173، الآثار العلوية، 1، 3، ص 55: 5، الكون والفساد، 1، 1، ص 286: 5، كتاب النفس، 1، 3، ص 169، 176، وما بعدها.

(6) الطبيعيات: 1، 4، ص 74: 5، و6، ص122، و 138، كتاب النفس، 3، ص 176: 5.

رشد، فيُدْخِل إليه من الرشاقة ما هو مُمْتِعٌ، ومما كان يَقَعُ، أحيانًا، أن يَرْتَقِيَ بحماسته العلمية وكَلَفِه بالفلسفة إلى نَبْرَةٍ من الخُلُقِيَّة بليغة إلى الغاية[1]، ويَسُودُ الإسهابُ شروحَه، ولكن بلا جَفَاف، وتَتَجَلَّى شخصيةُ المؤلف فيما يَعْرِف أن يسوقه إلى المواضع المهمة من استطرادات وتأمُّلَات، ونُضِيفُ، مع ذلك، إلى ما تَقَدَّمَ قولَنا إن هذه الشُّرُوح لا يُمْكِنُ أن يكُون لنا بها غيرُ مُتْعَة تاريخية، وإن من الجُهْدِ الضائع أن نحاول استخراجَ نُورٍ منها لتفسير أرسطو، وذلك كما لو أريد الاطِّلَاعُ على راسينَ بمطالعته في ترجَمةٍ تركية أو صينية، وكما لو أُرِيد تَذَوُّق روائع الأدب العبريّ بالتوجُّه إلى نِيقُولا اللِّيريّ أو إلى كُرْنِلْيُوس أَلَابِيد.

7 - إعجابُه، مع الغُلُوّ، بأرسطو

إعجابُ ابنِ رشدٍ الأسطوريُّ بأرسطو مما لُوحِظَ غالبًا، وقد ابتهج به بتْرَارْك[2]، ويَجِدُه غَسَّنْدِي قريبًا من تَبْجِيل لُكْرِيسَ لأبيقور[3]، ويَجْعَلُ مَلْبَرَانْشُ منه سلاحًا لمكافحة الأرسطوطاليسية[4]، قال ابن رشد في مقدمة كتاب الطبيعيات: «إن مؤلِّف هذا الكتاب هو أعقل اليونان، أرسطوطاليس ابن نِيقُوماخس، الذي وَضَع علومَ المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة وأكْمَلَها، وقد قُلْتُ إنه وَضَعها لأن جميعَ الكتب التي أُلِّفَتْ قَبْلَه عن هذه العلوم لا تستحقُّ جُهْدَ الحديث عنها، ولأنها توارت بمؤلَّفَاته الخاصة، وقد قلتُ إنه أكملها لأن جميع الذين خَلَفُوه حتى زَمَنِنا، أي في مدةِ خمسةَ عشرَ قرنًا، لم يستطيعوا أن يُضِيفوا شيئًا إلى مؤلَّفَاتِه أو أن يَجِدُوا فيها خطأً ذا بال، والواقعُ أن جميعَ هذا اجتمع في رجلٍ واحد، وهذا أمرٌ عجيبٌ خارقٌ للعادة، وهو، إذ امتاز على هذا الوجه، يستحقُّ أن يُدْعَى إلهيًّا أكثرَ من أن يُدْعَى بشريًّا، وهذا ما جَعل الأوائل يُسَمُّونه إلهيًّا[5]»، وقال ابن رشد في كتابٍ آخر[6]: «نَحْمَدُ حَمْدًا لا حَدَّ له ذاك الذي اختار هذا الرجلَ «(أرسطو) للكمال، فوضعه في أعلى درجات الفضل البشريّ التي لم يستطع أن يَبْلُغَها أيُّ رجلٍ في أيِّ عصرٍ كان، وأرسطو هو الذي أشَار اللهُ

(1) انظر إلى مقدمات الشارح على الطبيعيات، ومقدمات تهافت التهافت.
(2) De sui ipsius et mult, ignor، معارضة، جزء2، ص 1052.
(3) معارضة، جزء1، ص 396 (Liber Proemialis univ. phior)، وجزء 3، صفحة 1192 .Exercit, parad, adv, Arist
(4) بحث عن الحقيقة، 1، 2، قسم 2، فصل 7.
(5) أصاب مسيو ريتر في ملاحظته اختلاف هذا النص في الترجمتين اللاتينيتين لشرح الطبيعيات.
(6) .De gener, animal، 1،1

إليه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [الجمعة:4]، وقال ابن رشدٍ أيضًا[1]:: «إن مذهب أرسطو هو الحقيقة المطلقة، وذلك لبلوغ عقله أقصى حدودِ العقل البشريّ، ولِذَا فإنَّ من الحقِّ أن يقال عنه إن العناية الإلهية أنعمتْ به علينا لتعليمنا ما يُمْكِنُ أن نَتَعَلَّم»، «وأرسطو هو أصلُ كلِّ فلسفة، ولا يُمْكِن الاختلافُ في غير تفسير أقواله وفي النتائج التي تُسْتَخْرَج منها»،[2] «وقد كان هذا الرجل دُسْتور الطبيعة والمثال الذي حاولتْ أن تُعَبِّرَ به عن الكمال البالغ[3]»، ويَعْدِل جميعُ هذا ما أطلقه عليه بلزاك من كلام قائل: «إن الطبيعة لم تَكُنْ قد كَمَلَتْ تمامًا قَبْلَ وِلادة أرسطو، فلما وُلِدَ وَجَدت فيه تمامَها البالغَ وكمالَ وجودِها، وعادت لا تستطيع أن تَصْرِف النظر عنه، فهو غايةُ قُواها وحَدُّ العقل البشري[4]»، وفي الحقيقة أن هذه التعبيرات ليست أقوى من التي تُوجَدُ في كلِّ صفحةٍ من صُحفِ مؤلِّفي النصارى منذ صَدارَة أرسطو في القرن الثاني عشر، ووُجِدَ من الآراء ما عُزِيتْ به فلسفته إلى مصدرٍ يَفُوق الطبيعة، أي إن عفريتَ (خيرٍ؟ شَرٍّ؟) أوحى بها إليه، وعَدوُّ المسيح وحدَه هو الذي يَعْرِف سِرَّ ذلك[5].

وقد لا تُحْمَلُ هذه المدائحُ المتناهية إلى كبيرِ جِدٍّ، فمن الثابت أن ابن رشدٍ يميز، أحيانًا، بين رأيه ورأى المَتْن الذي يَشْرَح، أَجَلْ، إنه لا يبيح لنفسه إبداءَ رأيٍ مخالفٍ لرأي مُعَلِّمه، ولكنه يُعْنَى، من ناحية أخرى، بإخبارنا أنه لا يحتمل مسؤوليةَ المذاهب التي يَعْرِض، وهو يُصَرِّح في آخر شرحه الأوسط للطبيعيات[6] بأنه لا غَرَضَ له غيرُ التعبير عن رأي المَشَّائين، وذلك من غير أن يقول رأيَه الخاصّ، وبأنه أراد، كما صنع الغزاليّ، أن يقتصر على عَرْض المذاهب الفلسفية كيما يُمْكِنُ الحُكم فيها على بصيرةٍ من الأمر وكيما تُدْحَضُ إذا ما رُئِيَ ذلك، وكذلك تراه في آخر مقالته في «اتصال العقل المفارق بالإنسان[7]» يَتَنَصَّل من مسؤولية ما تشتمل عليه من المذاهب، ومن المحتمل ألَّا يكونَ هذا غيرَ احترازٍ ليكون أكثرَ حريةً في تفلسفه تحت ستار غيرِه ويجب أن يُعْتَرَفَ، على الأقلِّ، بأن هذا الأسلوبَ كثيرُ الشيوع بين العرب، ومما لاحظ ابنُ طُفَيْلٍ[8] أن ابن سينا ما انفكَّ يُحِيلُ من يُرِيدُون معرفةَ رأيِه الحقيقيِّ إلى «حكمته المشرقية»،

---

(1) تهافت التهافت، 1، 1، 3.

(2) Epist, de conn, intell, abstracti cum homine init(جزء 10، طبعة 1560).

(3) كتاب النفس، 1، 3، صفحة 169 (1550)، راجع الآثار العلوية 1، 3، صفحة 55: 5 (طبعة 1560)، وكان ألبرت قد لاحظ هذا النص واستشهد به، كتاب النفس، 1، 3 ترجمة 2، فصل 3، معارضة 3 صفحة 135 (Opus Majus صفحة 36) لورجربيكن (Quodl 3 Quaest 13)، لجيل دو روم، النقاش المشائي جزء1 صفحة 98 و106 (البندقية 1571) لباتريزي.

(4) جدال عقب سقراط النصراني، صفحة 228 (باريس 1661). (5) بيل، مادة أرسطو.

(6) متن غير مطبوع، ذكره مسيو منك (فصل 1، صفحة 165). (7) معارضة، جزء10، صفحة 360 (طبعة 1560).

(8) Phil, autodidact (طبعة بوكوك)، صفحة 19.

وأنه يَقُول في شروحه أشياءَ لا يعتقدها، ويَعْرِض الغزاليُّ في «مقاصد الفلاسفة» مذاهبَ الفلاسفة عَرْضًا وثيقًا يَحْمِلَ على الظنِّ بأنه يُبَيِّن رأيَه الخاصَّ مع أنه لم يَهْدِف إلى غير إعداده دحضَ هذه المذاهب، وهكذا قد يُوَضَحُ كثيرٌ من متناقِضات الفلسفة القديمة بانتحال لهجة المذهب ومسالكه لوقتٍ ما، ومن غير خَوْضٍ مُطْلَقٍ فيه.

8 - شروحُ ابن رشد

ذاعَ صيتُ ابن رشد بين اللاتين لأمريْن، لكَوْنه طبيبًا وكَوْنِه شارحًا لأرسطو، بَيْدَ أن فَخْرَه شارحًا أعظمُ من فخره طبيبًا بمراحل، فمهما يَكُنْ من شُهْرَةٍ نالتها «الكليات» لم تَبْلُغْ ما ناله «قانون» ابن سينا من اعتبار بالغ، ولابن رشدٍ من الشروح الكثيرة على جالِينُوسَ ما لم يُتْرَجم إلى العبرية ولا إلى اللاتينية، ومع ذلك فإن ابن رشدٍ يُعَدُّ في الطبِّ تلميذًا لأرسطو كما يُعَدُّ في الفلسفة، وقد أَلَّف كتابًا «مِثْلَ أستاذٍ» للتوفيق بين أرسطو وجالينوس، فإذا ما استحال جَمْعُ ما بينهما نُبِذَ جالِينُوس، وهو يقول بمذهب الفيلسوف الذي يَعُدُّ القلبَ عُضْوًا أصليًّا ومصدرًا لجميع وظائف الحياة الحيوانية[1]، ومع ذلك فإن مذهبه الطبيَّ لا يَنْطَوِي على أيِّ إبداعٍ كان. وكذلك لم يُبْدِ ابنُ رشدٍ أيةَ صفة فارقة مِثْلَ عالمٍ فلكيٍّ ومِثْلَ فقيه[2]، وإنما انتهى بشرحه الأكبر إلى تكوين قطبٍ ثَبَتٍ في الفلسفة، «فالطبيعة تُفَسّرُ بأرسطو، وأرسطو يُفَسَّرُ بابن رشد». وقد أَلَّف ابنُ رشدٍ ثلاثة أنواعٍ من الشُّرُوح لأرسطو[3]: الشرحِ الأكبر والشرح الأوسط والتلخيصات[4].

وشكلُ الشرح الأكبر خاصٌّ بابن رشد، ولم يستعمل الفلاسفة الذين ظَهَرُوا قبلَه من الشَّرْح غيرَ التلخيص، كما صَنَع أَلْبِرْتُ الكبير، وذلك بأن يُصْهَرَ النصُّ الأرسطوطاليسيُّ في عَرْضٍ متناسق لا يُمَازُ فيه بين المَتْن والشرح، وغيرُ هذا منهاجُ ابن رشدٍ في الشرح الأكبر، وذلك أنه يتناول كلَّ فَقْرَةٍ للفيلسوف بعد الأخرى ويُورِدُها كاملة ويُوضِحُها جُزْءًا بعد جزءٍ مُمَيِّزًا النصَّ الأصليّ بكلمة «قال» التي تَعْدِل حاصرتين مزدوجتين، وتُدْرَج المناقشاتُ النظرية على شكل

(1) راجع سبرنغل، تاريخ الطب، جزء2، ص 381، فريند، تاريخ الطب، ص 255 وما بعدها.
(2) ومع ذلك فانظر إلى النص الرائع الذي ذكره مسيو منك، مقالات، ص430، تعليق.
(3) من العادات المألوفة لدى العرب تأليف ثلاثة شروح على الكتاب الواحد، انظر إلى رينو، مقدمة ترجمة مقامات الحريري، ص 61.
(4) قال عبد الواحد المراكشي في المعجب: «رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة.. ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء»، (ص175، طبعة دوزي).

استطرادات، ويُقَسَّمُ كلُّ كتابٍ إلى مباحثَ، والمباحثُ إلى فصول، والفصول إلى مطالب[1]، ومن الواضح أن يكون ابن رشد قد اقتبس من مُفسِّري القرآن هذا المنهاجَ في العَرْض الحرفيّ حيث يُفَرَّقُ بدقَّة بين ما هو خاصٌّ بالمؤلف وما هو خاصٌّ بالشارح[2].

وفي الشرح الأوسط يُوَرَدُ نَصُّ كلِّ فِقْرَة بكلماتها الأولى فقط، ثم يُشْرَح الباقي من غير تفريقٍ بين ما هو خاصٌّ بابن رشد وما هو خاصٌّ بأرسطو.

وفي التلخيص أو التحليل يتكلمُ ابنُ رشدٍ باسمه الخاصّ دائمًا، فَيَعْرِض مذهبَ الفيلسوف مضيفًا حاذفًا باحثًا في الرسائل الأخرى ما تَكْمُلُ به الفكرة مُتَّخِذًا ترتيبًا ومنهاجًا من اختياره، وهكذا فإن التلخيصاتِ رسائلُ حقيقيَّةٌ كرسائل أرسطو، وبالعناوين والأقسام، على الخصوص، ما استحوذ أرسطو على النَّفْس البشرية، وذلك أن عناوينَ كتبه، أي أقسامَ العلم، ظَلَّتْ باقيةً نحو ألفي سنة. ولا مِرَاءَ في أن ابن رشدٍ لم يؤلِّفْ شروحَه الكُبْرَى إلا بعد الأخرى[3]، وفي آخر شرحه الأكبر للطبيعيات الذي تَمَّ سنة 1186 يُقْرَأُ في ترجَماته العبرية قولُه: «لقد قمتُ في شبابي بآخَرَ أقصرَ منه»[4]، وما أكثرَ ما وَعَدَ في شروحِه الوسطى بتأليف ما هو أوسعُ منها، ثم إن كثيرًا من مؤلَّفات ابنِ رشدٍ رسائلُ حَفِظَها المترجمون العبريون، فنَعرضُ وسيلةَ تعيين سلسلةِ مؤلَّفَاتِه إلى حَدٍّ ما[5].

قبل سنة 1162: الكليات[6].

سنة 1169: تلخيص أقسام الحيوان وتوالده (اَشْبِيلِيَّة).

سنة 1170: الشرح الأوسط للطبيعيات وما تَبِعَه من تحليل (أَشْبِيلِيَّة).

سنة 1171: شرح السماء والعالم (أَشْبِيلِيَّة).

سنة 1174: تلخيص علم الخَطابة وصِناعة الشعر، الشرح الأوسط لِمَا بعد الطبيعة (قرطبة).

---

(1) أقرت المدارس المشائية بإيطاليا هذه التقسيمات على العموم، راجع باتريزي، النقاش المشائي، جزء1، ص98.

(2) يأتي الشرح والتفسير بمعنى واحد في اللغة العربية، وتطلق كلمة التلخيص على الشروح الوسطى، ويعبر عن الخلاصات بالجوامع، وهي تقابل summa، وقد خلط عبد الواحد بين التعبيرين بعض الخلط.

(3) منك، مقالات، صفحة 431، وقد كان من الرأي الشائع في عصر النهضة أنه ألف تلخيصاته في شبابه، وألف شروحه الوسطى في كهولته، وألف شروحه الكبرى في مشيبه، راجع نيفوس In Phys Auscult، المقدمة، البندقية 1549، ومقدمة طبعة الجونت سنة 1552، (صفحة 2: 5).

(4) بازيني Codd mss, regii Taurin، أثينا، قسم 1، صفحة 52.

(5) أخطأ برتولكشي وفولف وبازيني خطأ كبيرًا في هذه التواريخ، وذلك نتيجة لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية.

(6) انظر إلى منك، مقالات، صفحة 429 - 430، تعليق.

سنة 1176: الشرح الأوسط لكتاب الأخلاق إلى نيقوماخس.

سنة 1178: بعض أقسام من جوهر الأجرام السماوية (مَرَّاكُش).

سنة 1179: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة (أشبِيلِيَّة).

سنة 1186: الشرح الأكبر للطبيعات.

سنة 1193: شرح كتاب الحُميَّاتَ لجالينوس.

سنة 1195: مسائل في المنطق (أُلِّفَتْ في أثناء نكبته).

ولدينا أنواعُ الشروح الثلاثةُ، سواءٌ أكانت بالعربية أم بالعبرية أم باللاتينية، وذلك عن الجوامع الثانية والطبيعيات والسماء والنَّفْس وما بعد الطبيعة، وليس لدينا عن كتب أرسطو الأخرى غيرُ الشروح الوسطى أو التلخيصات أو كِلَيْهما معًا، وكتبُ أرسطو الوحيدة التي لم يَبْقَ منها شرحٌ لابن رشد هي رسائلُ تاريخ الحيوان[1]، والسياسة[2] العشرةُ، فأما شَرْحُ تاريخ الحيوان فقد كان موجودًا فنَرَى له ذكرًا صريحًا[3] في ابن أبي أُصَيْبِعة وعبد الواحد وقائمة كتب ابن رشد العربية المدوَّنة في مخطوط الإسْكُوريال الذي رَقْمُه 879، وأما السياسةُ فنَعْلَم من ابن رشدٍ في خاتمة شرحه الأوسط لكتاب الأخلاق أن الترجَمة العربية لهذا الأثر كانت غيرَ معروفة في الأندلس بَعْدُ[4]، وقد صَرَّح في فاتحة شرحه لجوامع سياسة أفلاطون بأنه لم يَقُمْ بإيضاح هذا الكتاب إلا لأن كتبَ أرسطو عن هذا الموضوع لم تَصِلْ إليه.

وقد أمكن الاعتقادُ، عند التدقيق في الطَّبَعَات اللاتينية عن ابن رشد، بأنه كان لا يَعْرف الجزء الحادي عشر والجزءَ الثاني عشر والجزءَ الثالث عشر مما بعد الطبيعة، والواقعُ أنه لا يُوجَدُ في هذه الطَّبَعَات أيُّ شرحٍ لهذه الأجزاء[5]، غير أن مسيو مُنْكَ لاحظ وجودَ شرح أوسطَ لهذه الأجزاء الثلاثة[6]، واكتشف مسيو شتَاينشنَايْدِر دلائلَ جديدةً على دراسات ابن رشد لنصٍّ ما بعد الطبيعة الكامل الذي كان بعضُ أقسامه مُهْمَلًا كثيرًا حتى زمانه.

(1) انظر إلى شتاينشنايدر حول الترجمة العبرية المزعومة لشرح تاريخ الحيوان، Catat, cood hebr, Acad Lugd, Bat، صفحة 69، تعليق.

(2) ليس لدينا شيء من الآداب الكبرى والآداب إلى أوديم، وكان من عادة العرب أن يجمعوا الأخلاق الكبرى والأخلاق إلى نيقوماخس، فألفوا الأجزاء الاثنى عشر على هذا الوجه، (راجع فنريخ، صفحة 136).

(3) انظر إلى الصحفة 39 السابقة. (4) معارضة، جزء 3، صفحة 317: 5، 318 (طبعة 1560).

(5) رافيسون، ما بعد الطبيعة لأرسطو، جزء1، صفحة 81، جردان، مباحث حول ترجمة كتب أرسطو، صفحة 178، والجزء الحادي عشر ناقص في ألبرت، والجزء الثالث عشر والجزء الرابع عشر ناقصان في القديس توما.

(6) مقالات، صفحة 434 - 435، راجع بازيني Codd, mss regii Taurin، أثينا،1 صفحة 14 - 15.

وتُوجَدُ شروحٌ أخرى لم تُعْرَفْ لدينا إلَّا بإشارات مبهمة أو غيرِ مُحْكَمة، ومن ذلك أن لابَّ وفُولْف ودُورُوسِّي يُحَدِّثَان عن شرحٍ للموسيقى، ولكنّ من الواضح أنهما خُدِعا بإبهام هذه الكلمة التي تَدُلُّ في العبرية على صناعة الشعر، وأن الكتاب الواقعَ تحت نظرهما تلخيصٌ لهذا المؤلَّف الذي ترجمه تُوْدْرُوس تُودْرُوسي، ومما أَكَّدَه بِرْنَارْد نَفَاجِيرو، في رسالة كتبها للجُونْتِ، أنه رأى في الآستانة شرحَ الكتابين الأكبرَ في النباتات، وبما أن ابن رشد لم يَضَعْ شرحًا كبيرًا لغير الكتب التي كان قد لَخَّصَها وعَرَضَها سابقًا فإن من الصعب أن يُعْتَقَدَ أنه بَذَلَ عنايةً فائقة بهذا الكتاب من غير أن يكون قد وَصَلَ إلينا، ومن الخطأ أيضًا عَزْوُ فَابرِيسُوسَ إلى ابن رشدٍ كُتُبًا في الفِراسة[1]، فالشارحُ على العموم، قد مازَ كُتُبَ الفيلسوفِ الصحيحةَ من كُتُبه المُخْتَلَقَة بكثيرٍ من الاحترازِ.

9 - تعداد مؤلفاته

أَلَّفَ ابنُ رشدٍ، عدا هذه الشروحَ، عددًا كبيرًا من الكتب تُوجَدُ صعوبةٌ عظيمة في إحصائه تمامًا، ومن البعيد أن تُطَابِقَ القوائمُ التي نَقَلَها إلينا أصحابُ السِّيَر من العرب ما بين أيدينا من مؤلفَاتِ ابن رشد، وفي الغالب أن يَدُلَّ عينُ العُنوان على رسائل مختلفة، وأغْلَبُ من هذا أن يَكُون للرسالة الواحدة عناوينُ مختلفة، ومما يُرَى أحيانًا تأَلُّفُ رسائلَ من إلصاق رسائلَ برسائل، ويُوجَدُ في مخطوطٍ عربيٍّ بالاسْكُوريال (رقم 879)[2] مشتملٍ على قائمة كتب ابن سينا والفارابيّ وابن رشد، فيَظْهَرُ في هذه القائمة، باسم ابن رشد، ثمانيةٌ وسبعون كتابًا في الفلسفة والطبّ والفقه وعلم الكلام، ويُحْصِي ابن أبي أُصَيْبِعَة وحدَه خمسين كتابًا على الأقل، ولم يَذْكُر ابن الأبَّار غيرَ أربعة كتب[3]، وإليك القائمةَ التي وَضَعْناها بعد جمعٍ بين مختلف الجداول ومقابلتها بما لدينا من المؤلفات وحذف المُكَرَّرات[4].

1 - الرسائل الفلسفية

1 - الكتاب الذي عُرِف باسم «تهافت التهافت»[5]، والذي دُحِضَ به كتابُ الغزالي الذي عُنوانُه

(1) المكتبة اليونانية، جزء3، ص 252 (طبعة هارلس).

(2) أجدني مدينًا بنسخة هذا المخطوط البالغ الأهمية من حيث الموضوع الذي يشغلني للسيد جوزه دو ألافا ولسكرتير المجمع التاريخي بمدريد، السيد توما مونز، اللذين أبديا من النشاط في مساعدتي في هذه الحال ما أشكر لهما معه ذلك.

(3) لم يفعل الذهبي غير استنساخ ابن أبي أصيبعة وابن الأبار.

(4) راجع فستنفلد Geschichte der arab Aerzte، صفحة 105، وما بعدها.

(5) أطلق بيل وأنطونيو وبروكر، وجميع النقاد السابقين تقريبًا عنوان Happalath hahappala العبري على العنوان العربي، راجع =

«تهافت الفلاسفة»[1]، وقد ذُكِرَ هذ الكتابُ من قِبَل ابن أبي أصيبعة كما ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال[2]، وله ترجَمةٌ عبريةٌ[3] ولاتينية[4]، غير أن ترجَمته اللاتينية بعيدةٌ من الصحة كلَّ البعد ومُحَشَّاةٌ على ما يحتمل، ويناقض المذهبُ الذي عرِض في هذا الكتاب مذهبَ ابن رشد مناقضةً واضحةً من عِدَّةِ نِقاط.

2 - جوهرُ الأجرام السماوية، أو تركيب الأجرام السماوية، وتشتمل قائمة الإسكوريال وقائمةُ ابن أبي أُصَيْبِعة على كتب مختلفة تحت هذا العُنوان، والواقعُ أن هذا الكتاب مؤلَّفٌ من مباحث كُتِبَتْ في أزمنة مختلفة، وهذا الكتابُ من أكثر الكتب انتشارًا بالعِبْرية واللاتينية، وقد اتَّخَذَ هذا الكتابُ، بإضافته إلى كتاب العلل عادةً، مكانًا بين مجموعة المؤلَّفَات الأَرسطوطاليسية.

3 ،4 - رسالتان في «اتصال العقل المفارق بالإنسان»، وقد ذكرهما ابن أبي أُصَيْبِعة ذكرًا متتابعًا، وتُرْجِمَتْ هاتان الرسالتان إلى اللاتينية[5]، وإلى العبرية[6].

5 - كتابٌ ذكره ابنُ أبي أُصَيْبِعة بعبارة: «كتاب في الفحص هل يُمْكِنُ العقلَ الذي فينا، وهو المسمى بالهيولانيّ، أن يعقل الصُّوَر المفارقة بأخرةٍ أو لا يمكن ذلك، وهو المطلوب الذي كان أرسطو وَعَدَنا بالفحص عنه في كتاب النَّفْس»[7]، ولهذا الكتاب ترجمةٌ بالعبرية عُنوانها: «كتاب في العقل الهيولانيّ أو في إمكان الاتصال»[8]، وقد وَجَدْتُ عَدَا ذلك، ترجمةً

= بيل، تعليق ج، أنطونيو، جزء2، ص399، بروكر، جزء3، ص 103، فولف، المكتبة العبرية، جزء3، ص 16، وما نقول عن دربلو الذي افترض ظهور الغزالي بعد ابن رشد (مادة: رشد).

(1) يصعب إدراك فحوى كلمة «التهافت»، وقد انتحل مسيو غوشه Ueber Ghazzalis Leben und Werke، صفحة 268، تفسير مسيو شمولدر Essai، صفحة 215، فدحض مسيو منك هذا التفسير (مقالات، ص 372 وما بعدها)، وأعتقد أن المعنى الذي قصده الغزالي لهذه الكلمة هو «التساقط»، ولذا فإن الفكرة التي عبر عنها بهذا العنوان هو تساقط جميع المذاهب كما يتساقط القصر الورقي، وقد أراد ابن رشد بعنوان كتابه تساقط كتاب الغزالي أيضًا.

(2) Le De oeternitate mundi contra Algazelem، وقد ذكر على أنه موجود في مكتبة مار مرقس، ولا ريب في مطابقته لكتاب «تهافت التهافت»، راجع زانتي Latina et italica D. Marc, Bibliothca، صفحة 117.

(3) فستنفلد، صفحة 107، رقم 10، وشتاينشنادير، صفحة 23، 50-51.

(4) غوشه Ueber Ghazzalis Leben und Werke، صفحة 268، وما بعدها.

(5) Epistola de connexione intellectus abstrac De animoe beatitudine معارضة، جزء 9.

(6) منك، مقالات، صفحة 437، تعليق، ويعزو اليهود الرسالة الثانية إلى ابن رشد الجد، شتاينشنايدر، قائمة أكسفورد غير المطبوعة، رقم 25.

(7) اتبع مسيو دو غاينغوس درسًا سيئًا هنا.

(8) في باريس وأكسفورد وليدن، مقارنة أورى، المكتبة البودلية، 1، ص 74، فولف، المكتبة العبرية، 1، ص 14، 20-21، و3، ص15 - 16، شتاينشنايدر، Catal, Ludg, Bat، ص 18 وما بعدها، وقائمة أكسفورد غير المطبوعة، مادة ابن رشد، رقم 25، 26، منك، مقالات، ص 437، 448، تعليق.

لاتينية لعين الموضوع في مخطوطين من مصدر إيطاليّ[1] يَرْجِعان إلى القرن الرابعَ عشرَ، أحدهما في مكتبة مارمَرْقس بالبندقية[2] (6، رقم 52) والآخر في المكتبة الإمبراطورية[3] (أساس قديم، رقم 6510)، (انظر إلى الذيل6[4])، ولِذَا فإن ابنَ رشدٍ يكون قد أَلَّفَ، كما يظهر، أربع رسائل عن هذه النقطة الأساسية، وذلك من غير حسابٍ للاستطراد الوافر في الشرح على الجزء الثالث من كتاب النفس والذي خُصَّ به عينُ الموضوع.

6 - شرح رسالة ابن باجَّة في «اتصال العقل بالإنسان» التي ورد ذكرها في قائمة الإسكوريال[5].

7 - مسائل في مختلف أقسام المنطق التي تُضَاف عادةً إلى الشروح، فتُوجَدُ ترجَمةٌ عبرية لاثنين[6] منها.

8 - القياس الشرطي، وقد ذُكِرَ في قائمة الإسكوريال.

9 - كتاب المسائل البرهانية، وقد جاء عَقْب التحليلات الثانية في الطَبَعات اللاتينية.

10 - خلاصة المنطق، وقد نُشِرَت ترجمةٌ له إلى العبرية بريفا دي تَرَنْتُو، ولا ريب في أنه عينُ الكتاب الذي تراه في ابن أبي أُصَيْبَعة وفي قائمة الكتب بالإسْكُورْيال تحت عُنْوان «كتاب الضروريّ في المنطق» و«مقدمة المنطق»، فتَرَى لذلك مخطوطاتٍ عبريةً كثيرة[7].

11 - مقدمة الفلسفة، وهي بالعبرية، في الإسكوريال (رقم 629) وهي مؤلفة من اثنتي عشرة مقالة:

1 - الحامل والمحمول. 2 - الحدود.

3 - التحليل الأول والثاني. 4 - القضايا.

5 - القضايا الصحيحة والفاسدة. 6 - القضايا اللازمة وغير اللازمة.

---

(1) كان مخطوط باريس خاصًا بنقولا ليونيسينوس.

(2) Tractatus Averoys qualiter intellectus materialis conjungatur intelligentiae abstractae.

(3) Epistola de intellectu.

(4) يظهر أن مسيو شتاينشنايدر (Catal, Cod Lugd، ص 20، وص 78، تعليق) قد رأى هذه الرسالة بالعبرية، غير أن لاتينية هذا المترجم للأحوال المفضال بلغ من الغموض مالا أطمئن معه إلى أني أدركت فكرته جيدًا.

(5) والواقع أن ابن باجة ألف كتابًا بهذا العنوان، وقد أعرب ابن رشد في آخر رسالته «إمكان الاتصال» عن عزمه على شرح «تدبير المتوحد» لابن باجة (منك، ص388)، ومن الخطأ ذهاب مسيو شتاينشنايدر (ص 19 - 20) إلى أن الكتاب المذكور في قائمة الإسكوريال هو المقصود من هذا.

(6) منك، مقالات ص 436.

(7) برتولكشي، المكتبة الربانية، جزء1، ص 13، فولف1، ص 18، و2، ص 12، 1، بازيني، 1، 20 ، 66.

7 - البرهنة. 8 - النتيجة المطابقة.

9 - رأي الفارابيّ في القياس. 10 - خصائص النفس.

11 - الحسُّ والسمع. 12 - الصفات الأربع[1].

12 - جوامع سياسة أفلاطون، وقد ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال، وتوجد ترجَمةٌ له بالعبرية واللاتينية، (معارضة، جزء3، طبعة 1553).

13 - مقالة في التعريف بجهة نظر أبي نصر «الفارابي» في صناعة المنطق وبجهة نظر أرسطو فيها، وقد ذكره ابن أبي أُصيبعة، ومن المحتمل أن يكون قد أشير إليه في قائمة الإسْكوريال.

14 - شروحٌ كثيرة على الفارابي في مسائل المنطق لأرسطو، وقد أُشيرَ إليها في قائمة الإسْكُوريال.

15 - كتابٌ فيما خالف أبو نصر لأرسطو في كتاب البرهان من ترتيبه وقوانين البراهين والحدود، وقد ذُكِرَ هذا الكتاب من قِبَل ابن أبي أُصَيْبعة.

16 - مقالة في الرَّدِّ على أبي علي بن سينا في تقسيمه الموجودات إلى ممكن على الإطلاق وممكن بذاته وإلى واجب بغيره وواجب بذاته، وتُوجَدُ ترجمة عبرية لها في المكتبة الإمبراطورية (أساس قديم 356)، وقد ذَكَرَها ابنُ أبي أُصَيْبِعة[2].

17 - شرح الإلهيَّات الأوسط (تلخيص الإلهيات) لنِيقُولَاوُس، وهو مذكورٌ في ابن أبي أُصَيْبِعَة[3] وفي قائمة الإسْكُوريال، ولا ريب في أن هذا هو الفلسفة الأولى لنِيقُولَاوُس الدمشقيّ، وقد ذُكِرَ نيقُولَاوُس كثيرًا من قِبَل فلاسفة العرب، ولاسيما ابنُ رشدٍ الذي أَنْكَر عليه سَعْيَه في قَلْبِ نظام كُتُب ما بعد الطبيعة[4].

18 - رسالةٌ في هل يَعْلَم اللهُ الجزئيات، وقد ذُكِرَت في قائمة الإسْكُوريال.

19 - مقالة في الوجود السرمديّ والوجود الزمانيّ، «المصدر نفسه».

---

(1) الغزيري، 1، 184،

(2) راجع منك، مقالات، ص 358، وما بعدها.

(3) تدع رواية ابن أبي أصيبعة شكا في وجود هذا الكتاب، وتعد الرواية التي اتبعها الذهبي واضحة جدًا.

(4) ما بعد الطبيعة، 1، 12، مقدمة، ص 315: 5، 344، والنفس، 1، 3، ص 169، راجع بيرون وزيفورت، ما بعد الطبيعة لأرسطو، جزء1، ص 124، فنريخ، De auct groaec vers، دو ساسي، الرحلة المصرية لعبد اللطيف، ص77، تعليق.

20 - كتاب في الفحص عن مسائلَ وقعتْ في العلم الإلهيِّ في كتاب الشفاء لابن سينا، وقد ذَكَرَه ابنُ أبي أُصَيْبِعة.

21 - مقالةٌ في فَسْخِ شبهةٍ من اعْتَرَضَ على الحكيم وبرهانِه في وجود المادة الأولى وتبيين أن برهان أرسطو هو الحقُّ المُبين، «المصدر نفسه».

22 - مسألةٌ في الزمان.

23 - مسائلُ في الحكمة «المصدر نفسه».

24 - مقالة في العقل والمعقول، نسخة عربية في الإسكوريال (رقم 879)، ويُرَجَّحُ أن تكون «مقالةً في العقل» كما جاء في ابن أبي أُصَيْبِعة، وهي المقالة التي أخطأ مسيو فسْتِنْفِلْد[1] في عَدِّها عَيْن القسم الثاني من سعادة النفس.

25 - شرح مقالة الإسكندر الأفروديسيّ في العقل، وقد ذُكِرَ في قائمة الإِسْكُوريال، وله ترجَمةٌ بالعبرية[2].

26 - مسائل في علم النفس سُئل عنها فأجاب فيها، «المصدر نفسه».

27 - كتابان في علم النفس غير الكتاب السابق «المصدر نفسه».

28 - مسائل في السماء والعالم «المصدر نفسه».

وتَجِدُ عناوينَ أخرى في المكتبات والمخطوطات نشأتْ عن خطأٍ أو عن استعمالٍ مُزْدَوِج، ومن ذلك أن «معيار النظر» المتضمنَ مباحثَ في الله والْخَلق والخلود والنُّبُوَّة، والذي تُوجَدُ منه، في المكتبة البودلية وتورين وبارم، نسخٌ مترجمةٌ إلى العبرية[3]، هو للغزاليّ[4]، وأن تكاثر الحيوان بالولادة والتعفن الذي يوجد في قوائم المكتبة الإمبراطورية (أساس، سوربون612، أساس قديم 6510) ليس سوى خلاصةٍ عن الشرح على الجزء الثاني عشر من كتاب ما بعد الطبيعة، ولا تَقُوم رسائلُ تحول الأشياء الطبيعية عند قدماء الفلاسفة مع شرح ابن رشد، والنجومِ المُذَنَّبَة والإحساسِ والغذاء والطوفانِ والشروحِ حَوْلَ رسالة «حَيِّ بن يقظان» لابن

(1) Geschichte der arabischen aerzte und Naturforscher، صفحة 107.
(2) شتاينشنايدر Catat. Codd Lugd Bat، صفحة 21.
(3) أورى، 1، ص 74، فولف، جزء 3، ص 16، وجزء 4، ص 753، دو روسي، Codd، جزء 2، ص 77.
(4) شتاينشنايدر، ص 146.

طُفَيْل، وحَوْلَ كتاب «تدبير المُتَوَحِّد» لابن باجّة، التي ذكرها فُولْف وبَرْتُولُكْشِي وموريري[1]، على غير دلالات مبهمة غير صحيحة، ومن ذلك، أيضًا، عَزْوُ إرْبلُو إلى ابن رشد كتاب السياسة المُسَمَّى «سِرَاجَ الملوك» لأبي بكر محمد الطُّرْطُوشيّ الذي لا علاقةَ بينه وبين مؤلِّفنا[2].

2 - علم الكلام

1 - كتاب صغير اسمهُ فَصْلُ المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال[3]، وقد ذَكَرَه ابنُ أبي أُصَيْبعة، ونُشِرَ نَصُّه العربيُّ الذي استُخْرِج من المخطوط (629)، في مكتبة الإسْكُوريال[4]، وذلك في ميُونِيخ من قِبَل مسيو ج. مُلِّر، وتُوجَدُ ترجمةٌ عبريةٌ له في باريس[5] (أساس قديم، رقم 345) وفي ليدن[6].

2 - تلخيصٌ للكتاب السابق أو ذيلٌ له يشتمل عليه عَيْنُ المخطوطِ في الإسْكُوريال، وقد نُشِرَ من قِبَل مسيو مُلِّر أيضًا.

3 - مقالةٌ في أن ما يعتقده المَشَّاؤون[7] وما يعتقده المتكلمون من أهل مِلَّتِنا في كيفية وجود العالَم متقاربٌ في المعنى، وقد ذكرها ابن أبي أُصَيْبَعة كما وَرَد ذكرها في قائمة الإسْكُوريال.

4 - كتابُ المناهج في أصول الدين، وقد ذَكَره ابنُ أبي أُصَيْبِعة كما ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال، وتُوجَدُ نسخةٌ عربيةٌ منه في الإسْكُوريال (رقم 629)[8]، وتَرْجمةٌ عبرية له في المكتبة الإمبراطورية (منبر، رقم 111)، وفي ليدن[9]، وقد نُشِرَ من قِبَل مسيو ج. مُلِّر أيضًا.

5 - شَرح عقيدة الإمام المهديّ، وقد ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال، ولا رَيْبَ في أن هذا الكتاب يتناول بالبحث عقيدةَ مهدي الموحدين: أبي عبد الله محمد بن تُومَرْت.

---

(1) فولف، المكتبة العبرية، جزء1، ص 14، وما بعدها، وجزء4، ص 751، وما بعدها، برتولكشي، جزء1، ص 14، موريري، مادة: ابن رشد، بروكر، جزء3، ص 104، 178.

(2) انظر إلى دربلو، في كلمة «سراج الملوك»، وذلك إلى إضافات ريسك الكثيرة الخطأ، وإلى إضافات دو روسي Dizionario degli aut arab، ص 157 - 158، راجع دوزي وريخ، 2، ص66، و 254، وما بعدها.

(3) هذه هي الرواية التي اتبعها مسيو دو غاينغوس والذهبي، وعنوان المخطوط في المكتبة الإمبراطورية، ومخطوطي أكسفورد هو : «ما بين السنة وعلم الكلام من الاتصال»، ويؤكد النص العربي في الإسكوريال والترجمة العبرية قراءة مسيو دو غاينغوس والذهبي.

(4) أهمل الغزيري هذه الرسالة. (5) منك، مقالات، ص 438، تعليق.

(6) شتاينشنايدر، ص 41، وما بعدها، وص 147.

(7) من الخطأ ترجمة مسيو دو غاينغوس لهذه الكلمة بالمشاقين dissidents. (8) الغزيري، 2، 185.

(9) شتاينشنايدر (ص 42 وما بعدها)، جعل مسيو فستنفلد Gesch der arab aerzte، ص 17، رسالتين منفصلتين من الكتاب الذي يشتمل عليه مخطوط الإسكوريال والكتاب الذي ذكره ابن أبي أصيبعة، ومن الخطأ أيضًا أن عزى الكتاب الذي يشغل بالنا إلى ابن رشد الجد، فسنة 575، من الهجرة التي في الكتاب يعارض هذا.

3 - الفقه

1 - بدايةُ المجتهد ونهايةُ المقتصدْ في الفقه، وقد ذَكَرَ هذا الكتاب ابنُ الأبَّار ومحمدُ بن عليّ الشاطبيّ[1] وابنُ أبي أصيبعة، كما ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال[2]، ويُخَيَّلُ إليَّ أن هذا هو الكتابُ الذي عُزِي إلى ابن رشدٍ وذُكِرَ بعُنْوَان «كتاب المُعْتَقِد» في قائمةٍ للكتب المحظورة يَشْتَمِل عليها مخطوطنا العربيُّ (525، ملحق، ص39: 5).

2 - مختصر المُسْتَصْفَى في الأصول للغزاليّ، وقد ذَكَرَه ابن الأبَّار، وَوَرَدَ ذكرُه في قائمة الإسْكُوريال، كما ذَكَرَه المؤرخ ابنُ سعيد والمَقَّرِي[3].

3 - التنبيه إلى الخطأ في المتون، في ثلاثة أجزاء، وقد ذَكَرَه ليونُ الإفريقيُّ[4].

4 - الدعاوي، في ثلاثة مجلدات، تُوجَدُ نسخة عربية منه في الإسكوريال، رقم 1021، ورَقَم 1022.

5 - الدرسُ الكامل في الفقه، تُوجَدُ نسخة عربية منه في الإسْكُوريال، رَقم 1021، ورَقْم 1022.

6 - رسالة في الضحايا، المصدر نفسه، رَقم 1126.

7 - رسالة في الخراج، المصدر نفسه، والرَّقْمُ نفسه.

8 - مكاسبُ الملوك والرؤساء والمرابين المُحَرَّمةُ، المصدرُ نفسه، رقم 1127[5].

ويَعْزُو ابنُ أبي أُصَيْبِعة إلى ابن رشدٍ كتابين في الفقه الإسلاميّ هما: كتابُ التحصيل وكتابُ المقدِّمات في الفقه، بَيْدَ أن هذين المؤلَّفيْن هما لابن رشد الجَدّ[6]، وما ذُكِرَ تحت رقم 1، 2 من هذا المَطْلَب فقط لا رَيْبَ في صحةِ صدوره عن ابن رشد، ولا تَجِدُ واحدًا من العناوين التي أوردها الغزيري قد ذُكِرَ من قِبَل المترجمين لابن رشد، وبما أنه ظهر ثلاثةٌ من الفقهاء المشهورين تَكَنَّوْا بابن رشدٍ[7]، ولاسيما أبو عبدِ الله محمدُ بن عمر، الذي عاشَ حَوَالي سنة 700 من الهجرة، والذي تُوجَدُ مؤلَّفَاتُه في الإسْكُوريال[8]، فإنه ليس من دواعي الحَيْرَة أن يَكُون بعضُ هؤلاء قد خُلِطَ ببعض.

---

(1) مخطوط، أساس قديم 616، ص 184. (2) تجد اختلافًا في عنوان المتون الأربعة، وقد اتبعت ابن الأبار.
(3) جزء2، ص 122 (طبعة دوزي، إلخ)، غاينغوس، جزء1، ص 192 - 193. (4) فابريسيوس، جزء 13، ص 287.
(5) الغزيري، جزء1، ص 446، 450، 465، 466.
(6) منك، مقالات، ص 419، تعليق، دوزي، مباحث (طبعة ثانية)، 1، ص 359، راجع القرطاس، ص 144 من طبعة تورنبرغ، و ص 154، ترجمة بتيس دولا كروا.
(7) دو روسي، Dizionaio degli autori arabi، صفحة 158. (8) الغزيري، جزء2، ص 164.

4 - الفلك

1 - مختصر المجسطي، وقد أُشير إليه في قائمة الإسْكُوريَال، وتُوجَدُ ترجَمةٌ عبرية له في كثير من المكتبات، وهو لم يُتَرْجم إلى اللاتينية قَطُّ، مع ذلك فإن بِكْ دُو مِيرَنْدُول وفُوسْيُوسَ وغيرَهما يَعْرِفُون أمرَه.

2 - ويَذْكُر ملحقُ الإسْكُوريالِ اسمَ مؤلِّفٍ ثانٍ عُنوانه: ما يُحْتَاج إليه من كتاب... في المجسطي، ويُشَكُّ في اسم المؤلّف، وأرى أن هذا هو كلمة القُلوذيّ التي يضيفها إلى كلمة بطليموس، ولذا فإن هذا الكتاب هو عَيْنُ الكتاب السابق.

3 - مقالة في حركة الجِرْم السماويّ، وقد ذُكِرَت في ابن أبي أُصَيْبِعة وقائمة الإسْكُوريال، ويَعُدُّ مسيو فِسْتِنْفِلْد[1] هذه المقالَة عينَ مقالة العنصر السماويّ.

4 - كلامٌ على رؤية الجرم الثابتة بأدوار، وقد ذُكِرَت هذه الرسالة في قائمة الإسْكُوريَال. ويُعْرِب ابنُ رشد في الجزء الثاني من شرحه الأكبر لرسالة السماء[2] عن عَزْمِه، إذا أراد الله، أن يؤلِّف كتابًا في علم الفلك كما كان في زمن أرسطو، وذلك لنَقْضِ نظرية الدوائر التي تَطُفُّ على أخرى والدوائر المتداخلة المتخالفة المركز، ولمطابقة ما بين علم الفلك وطبيعيات أرسطو.

5 - النحو

1 - كتاب الضروريّ في النحو، وقد ذَكَرَه ابنُ الأبَّار وذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال.

2 - كلام على الكلمة والاسم المشتقّ، وقد ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال.

6 - الطبّ

1 - الكليات[3]، وهي درسٌ كاملٌ للطبِّ في سبعة أجزاء، وقد جُمِعَ الجزء الثاني والسادس والسابع منه من قِبَل جان بروِيران شانْبِيه تحت عُنوان «مجموعة في الأمور الطبية»، وليس كتاب «حفظ الصحة» الذي يُوجَدُ في الإسْكُوريال (رقم 879) بالعربية غيرَ الجزء السادس من الكليات، وقد ذُكِرَ كتاب الكليات من قِبَل ابن الأبَّار وابن أبي أُصَيْبعة كما ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال.

---

(1) الكتاب المذكور ص 107.

(2) ص 125 (طبعة 1560)، راجع Comment in 12 Metaph، ص 345.

(3) يبحث عن اشتقاق هذه الكلمة في Colligo على العموم، ومن هنا أتى اسم Collectorium الذي يطلق على هذا الكتاب أحيانًا (المكتبة الإمبراطورية، اساس لاتيني قديم، رقم 6949).

2 - شرح أُرجوزة[1] ابن سينا في الطبِّ، وهذا الكتاب من أوسع مؤلفات ابن رشد انتشارًا، وهو يُوجَدُ بنصِّه العربيّ في الإسْكُوريال وأُكْسفُورد ولِيدنِ، ولاسيما باريسُ (أساس قديم، رقم 1056).

3 - مقالة في التِّرْياق، ويستشهد بها ابنُ رشد نفسه (الكليات، 1، 7، فصل 2)، وتَجِدُ نسخةً عربيةً لها في الإسْكُوريال (رقم 879)، كما تَجِدُ ترجماتٍ لها بالعبرية واللاتينية في كثير من المكتبات.

4 - أجوبةٌ أو نصائحُ في أمر الإسهال، وتَجِدُ ترجمة عبريةً لها في مخطوطات سكالِيجه، 2، ليدن[2].

5 - تلخيص كتاب الحميات لجالينوس، وهو من الشرح الأوسط.

6 - تلخيص كتاب القُوى الطبيعية لجالينوس، في ثلاث مقالات.

7 - تلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس، في سبع مقالات.

وتَجِدُ أصلَ هذه الشروح (التلخيصات) الثلاثة في الإسْكوريال (رقم 879).

8 - تلخيص مقالات جالينوس في تشخيص بعض الأجزاء المصابة[3].

9 - شرح كتاب الإسْطُقْسات لجالينوس، وهذا لَا رَيْبَ هو كتاب الأعراض لبُقْراط.

10 - تلخيص كتاب المزاج لجالينوس.

11 - تلخيص الخمس مقالات الأولى من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس.

12 - تلخيص كتاب حيلة البرء لجالينوس[4].

وقد ذَكَرَ ابنُ أبي أُصَيْبِعَة جميعَ هذه الشروح، كما أنها مذكورةٌ في قائمة الإسْكُوريال.

13 - اختلاف المزاج، وتُوجَدُ نسخةٌ عربية منه في الإسْكوريال (رقم 879)، ولا رَيْبَ في أن هذا الكتاب هو عَيْنُ «مقالة في المزاج»، التي ذكرها ابن أبي أُصَيْبِعَة مِثْلَ كتاب مستقل عن تلخيص كتاب جالينوس الذي يَحْمِلُ عَيْنَ العُنوان[5].

---

(1) أي القصيدة التي هي من بحر الرجز، وقد ترجمت في القرون الوسطى وفي عصر النهضة بكلمة articult.

(2) شتاينشنايدر، ص 331، راجع فولف، 3، ص 16، 1218.

(3) كل ما ورد في عبارة ابن أبي أصيبعة هو كتاب التشخيص، وقد التبس الأمر على مسيو دوغاينغوس فترجمها بالفصد، ومع ذلك فانظر إلى شتاينشنايدر، ص 332، تعليق.

(4) أطلق مسيو دوغاينغوس على كتاب جالينوس عنوان صور الخلق.

(5) فستنفلد ص 106، وشتاينشنايدر، ص 331، تعليق.

14 - رسالةٌ في المفردات، ونسختُها الموجودة ترجَمةٌ عبرية، وهي غيرُ ما ذُكِرَ تحت رَقْم 11 آنفًا، وغيرُ رسالةِ المفردات التي نُشِرَت باللاتينية ولم تكن سوى الجزء الخامس من الكليات[1].

15 - مقالة في المزاج المعتدل، وقد ذُكِرَت في قائمة الإسْكُوريال، ولا رَيْبَ في أنها تُقَابِلُ كتاب الأعضاء الآلمة لجالينوس.

16 - عنصر التناسل، وقد طُبِعَت ترجمته اللاتينية للمرة الأولى في المجلد الحادي عشر من طبعة سنة 1560، وقد ذُكِرَ في قائمة الإسْكُوريال.

17 - مقادير المُلَيِّنَات في الطِّبّ، وهي نسخة مترجمة إلى اللاتينية، (المكتبة الإمبراطورية، أساس لاتيني سابق، رقم 6949).

18 - مسألة في نوائب الحُمَّى، وقد ذُكِرَت من قِبَل ابن أبي أُصَيْبِعَة.

19 - مقالة في حُمَّيات العَفَن «المصدرُ نفسه».

20 - مراجعات ومباحث بين أبي بكر بن طفيل وبين ابن رشد في رسمه للدواء في كتابه الموسوم بالكليات، «المصدر نفسه».

وتُوجَدُ في المخطوطات وفي مجموعات عصر النهضة وفي المكتبات مُتُونٌ لاتينية أو إشاراتٌ لاتينية لرسائلَ كثيرة تَحْمِلُ اسمَ ابن رشد، ولكن مع كَوْنَها موضع شكٍّ كبيرٍ كما يَظْهر[2].

10 - مُتُون ابن رشد العربية والمخطوطاتُ العربية والعِبْرية واللاتينية

كان من نتائج قِلَّةِ شهرة ابن رشد لدى المسلمين وسرعةِ أفول الدِّرَاسات الفلسفية بعد وفاته أن كان انتشار نسخ مؤلَّفَاته العربية قليلًا جِدًّا ولم تكَدْ تَخْرُجُ من الأندلس[3]، وما كان

(1) شتاينشنادير، ص 331 - 332، تعليق.

(2) ومن ذلك: De Venenis, De Concordia inter Aristotelem et Galenum de generatione sanguinis, Secreta Hippocratis, Quoestio de convalescentia at feber De Sectis, De Balneis Bibl, hisp, vetus 106 فستفلد، ص أنطونيو جزء2، ص 401.

(3) كان فريند قد أبدى هذه الملاحظة (تاريخ الطب، 2، ص 254)، وأخطأ مسيو هـ ريتر بشكه في هذه النقطة، Goett. gel Anz، 23 من يونيه 1853، ص 989 - 990، وظل ابن رشد مجهولًا تمامًا لدى مترجمي الرجال في الآستانة، وهو لا يزال غير معروف فيها، ونعلم مقدار رواج الكتب في سوق الآستانة دائمًا، ومع ذلك فقد كان يوجد فيها تهافت التهافت الذي توارى منها منذ زمن على ما يحتمل.

من إتلاف المخطوطات العربية على مَدًى واسعٍ بأمرٍ من إكْزِمنز (وقد أُبْلِغَ عددُ ما أُحْرِقَ منها في ميادين غَرْناطَة إلى ثمانين ألفًا[1]) أَدَّى إلى جعل النصِّ الأصليِّ لمؤلَّفات الشارح الفلسفية نادرًا إلى الغاية، وما انتهى إلينا من مخطوطاتٍ كلُّه بالكتابة المَرَّاكُشية، ويُؤَكِّدُ كازُوبون، الذين ذَكَرَه هُوِيه، أنه لَمَسَ بيده مخطوطًا، جاء به غَلْيُوم بُوسْتِل من الشرق، مشتملًا على شرحٍ لأقسام المنطق الخمسة في الخَطابة والشعر[2]، وأَعْتَرِف بأنني شَكَكْتُ، طويلَ زمنٍ، في هذا الزعم الذي حَبَاه أُسْقُفُ أَفْرَنْشَ العالِمُ بتأييده، وقد قلتُ في نفسي: كيف جَلَبَ بُوسْتِلُ من الشرق كتابًا نادرًا في الشرق إلى الغاية؟ وقد دُهِشَ هُوِيه، بعد أن لحظ أن سكَالِيجِه كان قانطًا من العُثُور على مخطوط عربيّ لابن رشد، من كَوْنَ هذا الرجل العالِم غيرَ عارفٍ بأمرِ مخطوطِ صديقِه ومراسِله الدائم: بُوسْتِل، ليس هذا الاعتراضُ قاطعًا؟ أليس من شأن الأغاليط الزاخرة في رسالة التفسير أن تُوجب، عند النظر إلى الترجَمات الشرقية، شَكًّا في شهادة هُوِيه؟... لقد رأيتُ زوالَ بعض شكوكي بعد فَحْص مخطوط فلورنسا، والواقعُ أن هذا المخطوط كُتِبَ كما كُتِبَ المخطوطُ الذي حَكَى عنه هُوِيه، فالشرحُ على قسم الخَطابة وقسم الشِّعْرِ وُجِدَ مُقْتَرِنًا فيه بشرح المنطق، وهذا الاتفاقُ هو من البروز ما لا يكُون قد اتَّفَقَ لهُوِيه وكازُوبون مصادفةً، حتى إنه لا يُعَدُّ من الحَدْسِ الجريء أن يُفْتَرَضَ أن المخطوط الذي لَمَسَه كازوبون هو عَيْنُ المخطوط في المكتبة اللورَنتية، بَيْدَ أن هذا لا يُضْعِفُ ما نحاول تقريرَه من أمرٍ عامّ، وذلك بما أن هذا المخطوط قد كُتِبَ بالخطِّ المغربيِّ المَحْضِ في القرن الرابعَ عشرَ فإن بُوسْتِل إذا كان قد أتى به من الشرق حَقًّا لم يُمْكِنْ أن يكونَ هذا غيرَ أثرِ مصادفة، ولدينا كتابٌ من ب.دُوبْوِي إلى سكالِيجِه[3] خُطَّ بباريسَ في 20 من مايو 1606، يَضَعُنَا على إثْرِ مخطوطٍ آخرَ عن ابن رشد كان يَعْرِفه كازُوبُونُ أيضًا.

ويَشْتَمِل مخطوطُ فلُورَنْسَا[4] على الشرح الأوسط للمنطق، كما يشتمل على تلخيصات فنّ

---

(1) غاينغوس، جزء1، ص 8، ولنلاحظ هنا أن مجموعة الإسكوريال لم تكن من بقايا عرب الأندلس خلافًا لما يعتقد، وإنما أتى معظمها من السفن المراكشية التي غنمت سنة 1611، وقد قضى حريق سنة 1671، على نصفها تقريبًا.

(2) De interpretatione et claris interpretibus، ص 141 (باريس 1680).

(3) رسالة فرنسية إلى مسيو دو لا سكالا (1624، 8)، ص 162: «... في هذه الأيام الماضية كتب إلى أخي المقيم بروما حول بعض الكتب العربية، وإليك الكلمات الخاصة التي وردت في كتبه: يمكنك أن تقول لمسيو كازوبون إنه يوجد هنا مواطن لديه مجموعة كاملة من كتب ابن رشد يقدرها بثمانية آلاف إسكو، وإنه وعدني بأنه يمكنني أن أنال نسخة عنها بخمسمائة إسكو، على ألا يعطي الناسخ أقل من هذا، فالكتاب رائع إلى الغاية، وهو جدير بمكتبة الملك».

(4) Ev, Assem Biblioth, Palat. Medic Codd mss orient، ص 335، cod 180، يخطئ مسيو فستنفلد Geschichte der arab AErzte, etx، ص 106، إذ يفترض اشتمال المكتبة اللورنتية على نسخة كاملة من شروح ابن رشد.

الخَطابة وفن الشعر، أي على مجموعٍ كاملٍ لمؤلَّفَات أرسطو[1] في المنطق، ولم تُسْفِر دراستي لهذا المخطوط الرائع عن اطلاعي على أيِّ فرق مهمّ في النصِّ اللاتينيّ إن لم يَكُنْ في تلخيص فنِّ الخطابة ولاسيما فنُّ الشعر، وقد وَكَّدْتُ في مكانٍ آخرَ[2] على ما يكون للمستشرقين من فائدة بنشر هذا التلخيص، ولدينا ترجمتان له، فأما ترجَمة هِرْمَنَ الألماني فمبهمة تمامًا، وأما ترجمةُ أبراهامَ البَلْميِّ فمختلفةٌ نَصًّا، وذلك لأن هذا المترجم العبريّ قد استبدل أمثلةً مألوفة لدى اليهود بالشواهد العربية التي كان ابن رشد نفسُه قد استبدلها بشواهد المَتْن اليونانيّ.

ومكتبةُ الإسْكُوريالِ وحدَها في أوربا، مع المكتبة اللُّورَنْتِيَّة، هي ما تَحُوزُ قسمًا من النصِّ العربيِّ لمؤلَّفَات ابن رشد الفلسفية، ويشتمل الرقم 629 على مقالات كثيرة بعُنوان «مقدمة الحكمة»، وعلى الرسائل المهمة فيما بين الحكمة والدين من الاتصال (انظر إلى ص 87 - 88) ويشتمل الرقم 646 على شرح كتاب النفس، ويشتمل الرقم 879 على مقالة في العقل والمعقول وقائمة تامة بأسماء كتبه[3]، وقد حَفِظَ لنا حاجي خليفة آخرَ كلمات «تهافت التهافت» لابن رشدٍ[4] بسبب كتاب «التهافت» للغزالي، ثم يُوجَدُ بعض مُتُون عربية لابن رشد بحروف عبرية ليستعملَها اليهود، وتشتمل مكتبتنا الإمبراطورية، بهذا الحرف، (الرقم 303 والرقم 317)، على تلخيص المنطق، والشرح الأوسط لرسالة الكَوْن والفساد، ولرسالة الآثار العلوية، وكتابِ النفس، وتلخيص القُوَى الطبيعية[5]، وتشتمل المكتبةُ البُودِلية، بالحروف عينها، على رسائل السماء والكَوْن والآثار العلوية[6].

وكُتُبُ ابن رشدٍ الطبيةُ أقلُّ نُدْرَةً من كتبه الفلسفية، وتشتمل الإسكوريالُ على مخطوطات كثيرة لشرحه أُرجوزةَ ابن سينا في الطبّ (الأرقام 799 و826 و858)، ولشرحه كتب جالينوس، ولمقالته في التِّرْياق، ولكتاب الكليات على ما يحتمل، وتشتمل المكتبةُ البودلية[7] ومكتبةُ ليدن[8] ومكتبة باريس[9] على مخطوطات شرح أُرْجُوزة ابن سينا. وعلى نسبة نَدْرة النصِّ

(1) ما فتئ فن الخطابة وفن الشعر يكونان من أقسام كتب المنطق في تصنيف السريان والعرب، راجع إيغر، تاريخ النقد لدى اليونان، ص 155، و299، 300، جردان، مباحث، ص 139، 142.

(2) ذخائر البعثات العلمية، (يوليه 1850.

(3) الغزيري، جزء1، ص 184، 193، 298، 299، وتوجد قائمة قديمة في الإسكوريال وضعت سنة 1583، ونشرت من قبل هوتنغر، فتدل على كتب أخرى لا توجد في الغزيري، وهي: مخطوطان عن شرح كتاب السماء ومخطوطان عن الكليات (المكتبة الشرقية، ذيل، ص 8، 9، 14، 15، 17، 18).

(4) Lexic biblogr، (طبعة فلوغل) جزء2، ص 474.

(5) منك، مقالات، ص 440، 445.

(6) أوري، ص Codd hebr 86.

(7) أوري، 2، ص 128، 261.

(8) Catal mss Anglioe et Hibernioe, Codd, Laudensse رقم 398، يشير إلى النص العربي للكليات، (Catal Bibl, Univ, Lugd Bat (Lugd 1716)، رقم 720، ورقم 721، ورقم 722، يظهر أن

(9) ملحق، رقم 1022.

العربيّ لكتب ابن رشدٍ في مكتباتنا تَرَى كَثْرَةَ الترجَمات العبرية لمؤلَّفَاته، ومن ذلك اشتمالُ الأساسِ القديم في المكتبة الإمبراطورية وحدَها على نحو خمسين مخطوطًا، واشتمالُ مكتبة فِينَّا على أربعين مخطوطًا على الأقلّ، واشتمالُ مجموعة الأب رُوسِّي على أكثرَ من ثمانية وعشرين مخطوطًا، وإِذَا عَدَوْتَ التوراة لم تَجِدْ، على ما يحتمل، كتابًا في مجموعات المخطوطات العبرية، أوفرَ من كتب ابن رشد.

وكذلك المخطوطاتُ اللاتينيةُ عن ترجَمات كتب ابن رشد كثيرةٌ جِدًّا، ولاسيما في الأُسس التي تُشِيرُ، كما في أساس السُّرْبون، إلى حركة الدراسات السِّكُلَاسِيَّة الكبرى، ويَرْجِعُ جميع هذه المخطوطات إلى القرنِ الرابعَ عشرَ تقريبًا.

11 - طَبَعَاتُ مؤلّفَاته

لم يُنْشَرْ أيُّ مَتْنٍ عربيٍّ لابن رشد قبل سنة 1859، وفي هذه السنة نشر مسيو ج. مُلِّر في ميونيخ، تحت رعاية المجمع العلميّ، مباحثَ «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» الثلاثة التي يشتمل عَلَيها مخطوطُ الإِسْكُورِيَالَ (رقم 629)[1]، ويَعِدُ الناشرُ العالِم بترجَمةٍ لهذا الكتاب وإِيضاحٍ له لم يَظْهَرَ بَعْدُ.

وفي سنة 1560 ظَهَرَت بالعِبْرِية في رِيفَا دي ترِنْتُو ترجَمةُ كتابين لابن رشد، وهما: تلخيصُ المنطق وتلخيصُ الطبيعيات، وفي سنة 1842 نَشَرَ مسيو غُلْدِنْتَالُ بِلِيْبِسِكَ ترجَمةَ شرح فنِّ الخَطابة إلى العبرية.

ولا يُحْصَى عَددُ ما طُبِعَ من ترجَمات كُتُبِ ابن رشدٍ إلى اللاتينية، كليًّا كان ذلك أو جزئيًّا، ولم تَكَدْ تَمُرُّ سنةٌ فيما بين سنة 1480 وسنة 1580 من غير ظهور طبعةٍ جديدةٍ لإحدى تلك الترجمات، وقد كان نصيبُ البندقية من هذه الطبعات أكثرَ من خمسين يُعَدُّ أربعَ عشرةَ أو خمسَ عشرةَ منها على شيء من الكمال[2].

---

(1) Philosophie und Theologie von Averroes, extrait no 3 des Monumenta soecularia de I>Academi, 1 re Class

(2) إذا أردت إحصاء طبعات كتب ابن رشد منذ بدء الطباعة فانظر: إلى هين، Repert Bibliogr، مادة أرسطو ومادة ابن رشد، وإلى بانز Annales typogr، مادة بادو والبندقية، وإلى هوفمن Le bibl، جزء1، ص 316 وما بعدها، وإلى ميتارللي Bibl, codd mss S. Michaelis Venet prope Murianum، ذيل، مجموعة 25 - 28، 32، وإلى أنطونيو، Bibl, hisp vetus، جزء2، ص 397، 401، وإلى فيربسيوس المكتبة اليونانية، جزء3، ص211، وما بعدها، وإلى فستنفلد Geschichte der arab Aertze، ص105، 108، وإلى تعليق طويل أضافه مسيو دارنبرغ إلى مادة ابن رشد في الطبعة المعادة إلى تراجم الرجال العامة 1843.

ومع ذلك فإنه كان لبَادُو فخرُ إخراجِ أول طبعة، فقد ظهرت باللاتينية في هذه المدينة، في سنة 1472 وسنة 1473 وسنة 1474، كُتبٌ لأرسطو مع شرح ابن رشد عليها[1].

وفي سنة 1481 ظهر بالبندقية تلخيصٌ لفنِّ الشعر مع تَفْسير الفاربيِّ لفنِّ الخَطابة[2]، وفي سنة 1482 ظهرت الكليات وجوهرُ الأجرام السماوية، وفي سنة 1483 وسنة 1484 ظهرتْ طبعةٌ كاملة (نادرة جدًّا) لأرسطو مع ابن رشد في ثلاثة مجلدات من قِبَل أنْدرِه آزُولُو[3]، وفي سنة 1489 ظهرت طبعة ثانية كاملة في مجلدين أو ثلاثة مجلدات (صفحة قوطية) من قِبَل بِرْناردِينُو دوتريدِينُو[4]، وما فَتِئَت الطَّبَعَاتُ تتعاقب منذ هذا التاريخ بلا انقطاع، وقد رأت السِّنُون: 1495، و1496، و1497، 1500 ظهورَ طَبَعَاتٍ على شيءٍ من الكمال، وعاد أرسطو لا يَظْهَرُ في البندقية بعدئذٍ من غير أن يُقْرَن بالشارح، وقد أوجب أنْدرِه دازولو وأُكْتَافيان سكُوت وكُومِينو دو تريدِينو وجان غرِيفْيُوس، والجونْتُ على الخصوص، تَتابُعَ الطَّبَعَات بسرعة فائقة في أثناء القرن السادسَ عشرَ، والطبعةُ الأوسعُ انتشارًا والأحسنُ إخراجًا هي ما قام به الجونْتُ في سنة 1553، وآخرُ طبعةٍ كاملة هي طبعة 1574.

ومع أن البندقية فازت باحتكار مؤلَّفَات ابن رشد كما قلنا فإنه اتفق لبعض المدن إخراجُ طَبَعاتٍ منفصلة لمؤلَّفاته في الطبِّ، ومن ذلك بُلُونِي (1501، 1523، و1580) وروما (1521، 1539) وبافي (1507 و1520) وستراسْبُرْغ (1503 و1531) ونابل (1570 و1574) وجِنِيف (1608)، وكان لِليُونَ طبعتُها الكاملةُ أيضًا لدى سِبيُون دوفابْيَانو (1524)[5] وعِدَّة طَبَعاتٍ جزئية (1517 و1531و 1537 و1542).

وأَخَذَت الطَّبَعاتُ تصيرُ في أواخر القرن السادسَ عشرَ نادرةً مقدارًا فمقدارًا، وبعضُ المؤلَّفَاتِ الطبية وحدَها هي ما أُصِرَّ على نشره، فلما حَلَّ القرنُ السابعَ عشرَ تورات هذه المجلداتُ التي لا يُحْصِيها عَدٌّ تحت الغُبار والنسيان.

---

(1) Nobilis Vicentini Joannis Philippi Aureliant et fratrum impensa, opera vero atque ingenio Laurenti Canozii Lendenariensis.

(2) تجد هذه الطبعة في المكتبة الإمبراطورية.

(3) تشتمل المكتبة الإمبراطورية على نسخة رائعة من ذلك على رق كان يملكها ملك بوهيميا وهنغاريا: فلادسلاس الثاني، راجع Van praet، قائمة الكتب على رق، جزء3، رقم 8 ورقم 9، برونه، Manuel du lib، جزء1، ص 177 (الطبعة الرابعة).

(4) تجد هذه الطبعة في مكتبة الأرسنال.

(5) هذه الطبعة، الكاملة الوحيدة التي ظهرت في فرنسا، نادرة جدًّا، ولم أر غير نسخة منها، وذلك في مكتبة الإقليم.